



تیرین

Looloo

www.dvd4arab.com

Thérèse Desqueyroux



تيرينز

للأستاذ، الفرنسي الكبير
فرانسوا موريارت
عضو الأكاديمية الفرنسية

تعرُّب الأستاذ

محمود عبد المنعم



Looloo

www.dvd4arab.com

وبى ، ارحم المجانين والمجنونات ة
ارحمهم يا خالق الكون ، هل يمكن
ان يوجد وحوش من بنى البشر فى
نظر الذى يعرف وحده لاما وجدوا
وكيف نسوا ، وكيف كان يمكن
خلقهم على غير ما هم عليه ؟

شارل بودلين



Looloo

www.dvd4arab.com

مقدمة

سوف يقول الكثيرون ، يا تيريز ، ألا وجود لك . ولكنى أعرفك
أنا حقيقة ماثلة ، أنا الذى قضيت السنوات الطويلة أتبصص
هليك ، وكثيرا ما استوقفتك فى الطريق ، وكثيرا ما تفحصت
وجهك .

وكم أذكر ، عندما كنت مراهقا ، انى لمحت وجهك الأبيض
الصغير ، فى إحدى القاعات الخائقة التى تعقد فيها جلسات
الجنائيات وانت مستسلمة الى المحامين الذين كانوا أشفق عليك
من السيدات المتبرجات .

بعد ذلك برزت لعينى فى أحد منتديات الريف ، ولك ملامح
امرأة . . امرأة شابة عابسة ضجرة بالرعاية التى تحيطك بها قريباتك
العجائز ويبدلها لك زوجك الساذج ، وهم يتساءلون ، ولكن ما
دهاها ؟ . السننا نجبوها بكل شىء ؟ .

من ذلك الحين كثيرا ما شاهدت يدك المفرطة فى الكبر نوعا ما
وهى تمتد الى جيبك العريض الجميل . وكم من مرة رأيتك من
خلال الحواجز الحية التى تتكون منها أسرة من الأسر ، وانت
تدورين وتلفين بخطوات كخطوات الذئبة وتسددين الى نظراتك
المليئة بالحقد والحزن معا .

سوف يدهش الكثيرون لما أقدمت عليه من تصور هذه
المخلوقة التى بزت جميع الآخرين قسوة وبشاعة . ولكن هل فى
استطاعتى أن أحكى شيئا عن الناس الذين تتفجر الفضيلة منهم
والذين يحملون قلوبهم على أيديهم ؟ . أن الذين يحملون قلوبهم
على أيديهم لا قصص لهم بينما أنا عليم بقصص القلوب الدفينة
التي تختلط بأجساد من الطين .

— كنت أود يا تيريز ، أن ينتهى بك الالم الى طريق الله . ولطالما

Looloo

www.dvd4arab.com

فتح المحامي الباب . شعرت تيريز دى كويرو : فى هذا الممر المنزل من ممرات سراى العدل ، بالضباب يلفح وجهها فاستنشقته بعمق كبير . انها تخشى التباطؤ ولكنها تتردد فى الخروج . هناك رجل قد تدثر فى ثيابه حتى عنقه . انه يخلو بميدا عن شجرة الساج التى التصق بجذعها . لقد عرفت فيه اباه . صاح المحامي قائلا :

- لا وجه لاقامة الدعوى ..

ثم التفت الى تيريز وقال :

- يمكنك الخروج . لا يوجد احد .

هبطت تيريز الدرجات المبتلة . حقا . يبدو الميدان الصقير مقفرا . لم يقبلها ابوها بل ولم يدر نحوها نظره ، وانما راح يوجه الاسئلة الى المحامي دورو الذى كان يبعث بردوده فى صوت خفيض كان شخصا يسترق السمع الى حديثهما . وكانت كلمات الرجلين تصل الى اذنى تيريز مبهما غامضة .

قال المحامي :

- سأتسلم غدا التبليغ الرسمى بعدم وجود وجه لاقامة الدعوى .

فسأله الاب :

- ألم يعد هناك محل لاية مفاجأة اخرى ؟ .

ورد عليه المحامي

- كلا .. لقد طبخت الطبخة كما يقولون .

فقال الاب :

- بعد الشهادة التى ادلى بها زوج ابنتى ، اصبح الامر منتهيا .
فرد عليه المحامي :

- منتهيا .. منتهيا .. من يدري !

وقال الاب :

- ما دام هو نفسه باعترافه لم يكن يعد قطرات الدواء ابدا .

فاعترض المحامي قائلا :

تمنيت ان تكونى جذيرة باسم القديسة لوكوستا (١) ولكن او حدث ذلك لشار الكثيرون محتجين على ما فى هذا التشبيه من اثم وامتهان لقدسية الاسماء ، على الرغم مما يسلمون به من ضعف نفوسنا المذبة التى يجوز لها ان تسقط مرة ثم تبرا من سقطتها .

على انى اذ اتركك فى عرض هذا الطريق يساورنى الامل فى انك لست الوحيدة فيه .

(١) رومانية اشتهرت بجرائم القتل بالسّم استخدمته -
اجريبيينا لقتل كلوديوس كما استخدمها نيرون للقضاء على
يورثانيكوس . حكم عليها بالاعدام فى سنة ٦٨ للميلاد (المترجم) .

هل تعلم يا لاروك .. فى مثل هذه القضايا .. شهادة
المجنى عليه ...
وهنا ارتفع صوت تيريز تقول :
- لم يكن هناك مجنى عليه ..
أقبادها المحامى قائلا :
- سيدتى .. لقد أردت أن أقول أن أعماله هو الذى جنى
عليه .

فنظر الرجلان هنيهة الى المرأة الشابة وقد وقفت بلا حراك
ملتفة فى معطفها وتأملا وجهها الشاحب وقد خلا من التعبير ..
سالت تيريز عن العربة التى كان أبوها قد استوقفها تنتظرن
خارج المدينة لكيلا يثير وجودها انتباه أحد .

أحترق الجميع الميدان ، وقد التصقت بمقاعدته التى بلها
المطر وأوراق الساج المتساقطة . كان النهار لحسن الحظ قد قصر
كثيرا وللوصول الى طريق بودو يمكن سلوك أكثر الشوارع اقفارا
اقى البلدة . سارت تيريز بين الرجلين وقد ارتفعت هامتها فوق
أقامتهما بينما راحا مرة أخرى فى النقاش كان لا وجود لها معهما .
ولم يكن يضابقهما الا الفاصل الذى يبعدهما عن بعضهما بوجود
هذه المرأة بينهما فأخذ كل منهما يدفعها بكوعه . عندئذ تخلفت
صنهما قليلا واخلعت قفازها لتلتقط شيئا من الطحلب العالق
بالحائط الذى تسير الى جواره . ومن وقت لآخر يمرق بالقرب
منها عامل ممتط دراجته أو عربة صغيرة ، فكان الوحل المتطاير
يلجئها الى الاحتماء بالجدار . ولكن عتمة المساء كانت تلفت بتيريز
اقتحجها عن امين المارة ولا يعرفها أحد . ولم تكن الروائع المنطلقة
من الأفران والمنبعثة من الضباب المنتشر هى مجرد عيبق المساء
اقى بلدة صغيرة وانما كانت تيريز تجد فيها عبر الحياة وقد ردت
اليها بعد لائى .. فكانت تفلق عينيها على أنفاس تلك الأرض
العائمة المعشوشبة المبتلة . وكانت تجاهد فى الا تصفى الى
حديث ذلك الرجل القصير ذى الساقين الضئيلتين المقوستين
الذى لم يلفت مرة واحدة نحو ابنته . انها لو سقطت مقسبيا

عليها على حافة هذا الطريق لما شعر بها أبوها ولما أحس بها
دورو بعد أن زالت عنهما الرهبة فرمعا عقيرتهما بالحديث ..
قال احدهما :

- لقد كانت شهادة مسيودى كوبرو جيدة .. نعم .. ولكن
للك التذكرة الطبية .. انها فى الواقع مزورة .. وكان الدكتور
بيدماى هو الذى تقدم بالشكوى ..
أجابه الآخر :

- لقد سحب هذا الطبيب شكواه ..

- على كل حال ، الحجة التى قدمتها .. وهذا الشخص
المجهول الذى أعطاهم التذكرة الطبية ! .

حاولت تيريز عيشا أن تخفف من خطاها ليس لان السسر
انعمها ، ولكن لتتحاشى سماع تلك الكلمات التى صدعوا بها رأسها
طوال الاسابيع الماضية . ولكن استحال عليها عدم سماع صوت
ابنها الذى كان يصرخ قائلا :

- لطالما قلت لها : ابنتها البائسة ، ابحتى لك عن شئ آخر ..
ابحتى لك عن شئ آخر ..

لقد قال لها ذلك مرات عديدة وكان من حقها أن يطمن الى
سلامة موقفه . فما الذى يقلقه بعد ذلك ؟ ان ما يسميه الشرف
والاسم قد خرجا سليمين من المأساة . والى ان يحين موسم
الانتخابات لمجلس الشيوخ لن يذكر احد تلك القصة بانورها . هذا
ما كانت تفكر فيه تيريز وهى تود او لم تلحق قط بالرجلين . ولكن
الرجلين ، وقد أخذتهما حدة المناقشة ، توقفا فى وسط الطريق
واندما يشوحن بأيديهما .. قال المحامى :

- صدقتى يا لاروك ، واجه الامر بجرأة ، بادن الى الهجوم فى
معد الاحد القادم من جريدة « الزارع » هل تفضل أن اتولى اقا
هذه المهمة ؟ يلزمنا عنوان مثل « الأشاعة القبيحة » ..
ود عليه زميله قائلا :

- لا يا صدقتى .. لا .. لا .. لا .. كيف يكون العنوان ؟

ان التحقيق قد داخلته (الكلفة) حتى أنهم لم يستسيروا قية واحدا من خبراء الخطوط ، ليس أمامنا غير الضممت والكتمان .. هذا كل ما أعرفه . سوف أتأجر وسوف أبلل من مالي .. ولكن من أجل سمعة الأسرة يجيب اخفاء ذلك كله .. يجيب أخفاؤه ..

لم تسمع تيريز ماذا كان رد دورو على هذا الكلام لأن المحامي كان قد أصرع الخطو . فعادت تستنشق الليل الطير مرة أخرى كما لو كانت انسانا يعاني الاختناق . وفجأة حضر الي ذهنها وجه مجهول هو وجه جولي بيلاد .. يجدها لامها .. أنه وجه مجهول .. انك لتبحث عينا لدى أفراد عائلة لاروك او لدى أفراد عائلة دي كويرو عن رسم أو صورة لهذه المرأة التي لا يعرف عنها اي انسان شيئا الا انها قد ذهبت في يوم من الأيام . تخيلت تيريز انها ربما كانت ستمحي هي الأخرى كما محيت جدتها وتلاشي حتى يتعلم فيما بعد على ايبتها ماري الصغيرة أن تعثر في أحسدي المجموعات على صورة المرأة التي جاءت بها الي هذه الدنيا .. ان ماري ، في هذه اللحظة ، تنام في إحدى حجرات أرجلوز حيث تعمل تيريز في تلك الليلة متأخرة . وسوف تصفى هذه المرأة الشاية في الظلام الي الطفلة في رقادها وسوف تنحني عليها وتلمس بشفتيها كالماء تلك الحياة النائمة .

على حافة الطريق كانت تسير عربة مريحة الستر بينما تنعكس أضواء مصابيحها على أوداف الجوادين النحيلين الملقين بها .. والى الامام على جانبي الطريق كانت ترتفع حوائط مسوداء من أشجار الشابة تنتشر على اليمين وعلى اليسار متعاقبة القمم وتحت هذا القوس المقنود كان الطريق الخفي ينحدر مندسا . وكانت السماء فوق الرؤوس لابسة برداء من فروع الشجر .

أخذ الحوذي يسدد نظراته الي تيريز في اهتمام نهم . وحينما سأله هل سيصل بهم في الموعد المناسب لركوب القطار الأخر من محطة نيزان طمانها وأضاف أنه على كل حال يحسن الإسراع وعدم إضاعة الوقت ..

قالت تيريز :

- هذه هي المرة الأخيرة التي أكلفك فيها هذه المشقة باجاردن فأجابها الحوذي :

- ألم يعد لك يا سيدتي ما تفعلينه هنا ؟

هوت رأسها بينما ظل الرجل يلتمها بنظراته . هل قدر لها

أن تنظر طوال حياتها هكذا نهبا للأناظر ؟

- اذن أنت مسرورة ؟

وجه اليها ابوها هذا السؤال وقد بدا أنه تشبه في نهاية الامر الي وجوها بجواره . قاسرت تيريز تلقي نظرة فاحصة خاطفة على هذا الوجه الذي شوهته المראה وقد تناثرت على أديمه شعيرات بيافة بيضاء اللون في اصفرار وجلت قسماته أضواء مصابيح العربة . ثم قالت في صوت خافت « لقد تعذبت كثيرا .. أتى متعبا .. » . ثم كتفت عن الكلام . فما جدوى كلماتها ؟ انه لا يصفى اليها ولا يراها . وما شأنه بما تحسن به تيريز ؟ ان كل الذي يهمه هو الوصول الي أحد مقاعد مجلس الشيوخ وقد قامت المراقيل في سبيله بسبب هذه الابنة .

- أنهن كلهن هكذا .. اما مجنونات او معتوهات . انها لم تعد لحسن العظمتحمل اسم لاروك . ان اسمها الآن دي كويرو . لقد أمكن تحاشي محكمة الجنابات ، ولذلك فهو يتنفس الصعداء كيف السبيل الي منع الخصوم من فتح هذا الجرح ؟ من الفد صوف نذهب الي مقابلة عمدة البلدة . حمدا لله فما زال مديني صحيفة « اللاند المحافظة » في صفنا . اف لهذه القصص التي تثيرها الفتيات الإغراق .. قبض الاب على ذواع تيريز وقال : - هيا اصعدى سريعا . لقد حان الوقت ..

هنا تكلم المحامي ، ربما بدافع الخبث ، وربما بدافع الرغبة في الا يترك تيريز تنصرف من غير ان يوجه اليها كلمة منه . فسأها عما اذا كانت ستذهب منذ تلك الليلة الي لقاء مسيو برناردى كويرو فأجابت :

- ان هذا امر مؤكد . طبعاً . ان زوجي ينتظرني .

فقر الي ذهن تيريز وهي تلقي بهذه الكلمات خاطر يقول :

Looloo
www.dvd4arab.com

ان تلك هي المرة الاولى حقا ، معقدة ان هادوت مكتب قاضي التحقيق ، التي تتذكر فيها انها بعد بضعة ساعات سوف تجتاز عتبة الحجره حيث يرقس زوجها واما زال يعانى المرض ، وان سلسله لا نهاية لها من الايام والليالي سوف تمتد امامها ويكون عليها خلالها ان تعيش ملتصقة بهذا الرجل .

حقا ، ان تيريز قد قطعت من قبل مرات عديدة هذه الرحلة نفسها التي تقوم بها في تلك الليلة . لقد كان ذلك اثناء المدة التي قضتها في منزل ابيها ، الواقع بالقرب من منافذ البلده الصغيرة منذ بدء التحقيق معها . ولكن رحلاتها السابقة كانت لفرض آخر ، هو ابلاغ زوجها تطورات التحقيق . ولطالما اصفت قبل ان تتركب العربيه الى توجيهات دورو ونصائحه بشأن الاجابات التي يلتزم بها مسيو دى كويرو عندما يعيد المحقق سؤاله . ولم يكن يخالف تيريز في ذلك الوقت اى قلق او ضيق في مواجهتها لهذا الرجل المريض . وكان اهتمامها وقتئذ منصرفا كله ، لا الى ما حدث فعلا ، ولكن الى ما يجب ان يقال وما لا يجب ان يذكر في التحقيق . لم يحدث قط ان كان الزوجان في حياتهما الزوجية على مثل هذا التقارب الذي ساد بينهما بسبب هذا الدفاع . ان جسدا واحدا كان يشدهما الى بعضهما ، هو جسدهما الصغرى ماري . . كان جسد هههما منصرفا في تأليف القصة البسيطة المتناسكة التي تروى للقاضي وتكفي لاقتناع زوعته القانونية . كانت تيريز في تلك الفترة تركيب تلك الصرية نفسها التي تركيبها في تلك الليلة وتحرق رغبة في الوصول الى نهاية تلك الرحلة الليلية التي تمنى الان الا ترى لها نهاية . كم كانت تشوق في ذلك الوقت ، بمجرد صعودها الى العربيه ، ان ترى نفسها بين جدران تلك الغرفه في ارجلوز . انها تستعيد في ذهنها التوجيهات التي كان ينتظرها منها برنار دى كويرو . . كانت هذه التوجيهات تقول : عليه الا يخشى ان يؤكد في التحقيق واقمصا حديث زوجته له ، في احدى الليالي ، عن تلك التذكرة الطيبة التي صرفتها من الصيدلية ، بناء على رجاء رجل مجهول توسل اليها بسببه عدم استطاعته التوجه بنفسه الى الصيدلي الذي يطالب

يديون سابقة لا يستطيع تسدادها الآن . . وكان المحامي دورو يرى الا يتسدى برنار في تليفيق هذا الدليل الى حد الزعم بانه عاج وقتئذ على زوجته اقدامها على ارتكاب مثل هذه الحماقة . . تساءلت تيريز بعد ان تبعد عنها هذا الكابوس ، عما سوف يتكلمان عنه هي وبرنار ؟ تمثل في ذهنها هذا البيت الضائع الذي ينتظرها فيه زوجها . فرأت في خيالها السرير القابع في وسط الغرفه ذات البلاط المربع ، والمصباح الخفيف على المنضدة وسط اكوام الجرائد وزجاجات الدواء . . وتخلت كلاب الحراسة وقد لبها صوت العربيه فأخذت تنبح ثم عادت الى الهدوء ، وبعد ذلك الصمت الرهيب كذلك الليالي الطويلة التي طالما تطلعت اثناءها الى برنار وهو يعانى نوبات القىء الشديد ، حاولت تيريز ان تتخيل النظرة الاولى التي سوف تتبادلها معه بعد لحظة ، ثم في تلك الليلة ثم في اليوم التالي ثم في الايام المقبلة والاسابيع القادمة ، وهما معا في ذلك البيت في ارجلوز ، حيث ان تكون بهما حاجة الى تليفيق الرواية الزائفة للماساة التي عاشها معا . . ان يكون بينهما بعد الآن الا ما حدث حقيقة . . ما حدث حقيقة . . عند هذا الخاطر ارتعدت تيريز رعبا وقالت متلعثمة وهي توجه كلامها الى الاب المعجوز وتدير وجهها ناحية المحامي :

— انى انوى البقاء بضعة ايام عند مسيو دى كويرو وبعد ذلك اذا استمر التحسن في صحته ، سوف اعود عند ابي . .
— اما هذا فلا ، لا ، لا ، يا صغرتى .

واذ اخذ النحوى جاردير يتحرك فوق مقعده قال مسيو لاروك في صوت اقل حدة :

— هل جننت تماما ؟ كيف تتركين زوجك في هذا الوقت ؟ ، يجب ان تكونا كاصبعي اليد الواحدة . هل تسمعين ؟ حتى الموت .
— انت على حق يا ابي . . اين كان عقلى ؟ . . اذن انت الذي سوف تجيء الى ارجلوز ؟ . .

— بلا بل سوف انتظركما يا تيريز في منزلى ايام الخميس حيث يعقد السوق . . ستجيتان كما كنتما تفعلان دائما من قبل .

ثم تسأل الأب كيف تاه عن قهها ان أقل خروج على العادات
المريعة معناه الموت لهما جميعا . وقال مؤكدا :

- اتفقنا على ذلك إذن ؟ وأستطيع الاعتماد عليك فيه يا تيريز ؟
يكفى ما سببته للعائلة من الألم .. !

- ستفعلين كل ما يطلب منك زوجك عمله ، وليس لدى
ما أقوله أكثر من ذلك ..

بعد هذه الكلمات اندس الأب داخل العربة ..

رأت تيريز يد المحامي تمتد نحوها بأظفارها الجافة السوداء
وسمعتة يقول :

- كل ما كانت خاتمته خيرا فهو خير ..

وكان حقا يعني ما يقول إذ لو ان القضية سارت سيرها
المأدى لما عادت عليه منها أية فائدة بل للجات العائلة الى
الاستعانة بالأستاذ بيركاف من محامى بوردو .. حقا ان كل شيء
انتهى على ما يرام ..

- ٢ -

ما أكثر ما كانت تيريز تحب هذه الرائحة العظنة المنبعثة من
الجلد المسوسة به مقاعد العربات العتيقة . لم تحزن كثيرا لتسببها
سجائرنا فهي تتركه التدخين في الظلام . مصابيح العربة تلقى
أضواءها على المنحدرات المتتابعة وعلى عناقيد السرخس المتدلية
وعلى اقدام أشجار الصنوبر الشامخة .. أكوام الحصى المتناثرة
تمزق الظلال المسيرة للركب .. ومن وقت لآخر تمر عربة ريفية
فتتجه بقالها تلقائيا ناحية اليمين من غير ان يتحرك سائقها النائم
يداخلها . خيل لتيريز أنها لن تصل أبدا الى أرجلوز وتمنت لو لم
تصل إليها قط .. سارت العربة ساعة أو أكثر من ساعة قبل أن
تصل الى محطة نيزان ، ثم باتى بعد ذلك هذا القطار الضئيل
الذى يتوقف طويلا عند كل محطة .. من بلدة سانت كلير حيث
يكون نزولها ، سوف يبقى امامها عشرة كيلو مترات أخرى حتى
تصل الى أرجلوز .. هذه الكيلومترات ستقطعها تيريز بالعربة
مرة أخرى لان الطريق لا يسمح بمرور السيارة فيه ليلا .. قد

يقفز القدر في أية مرحلة من هذه المراحل وينقلها . استسلمت
تيريز الى تخيلاتنا التي كانت تقشها في الليلة السابقة على الحكم
لو ان الاتهام ظل قائما ضدها .. انه الشهور يتوقع حدوث
زلازل ارضي عنيف .. خلعت قبعتها واستندت الى الجلد الذى
تفوح منه الرائحة رأسها الصغير التمايل واسلمت جسمها لهزات
الطريق الوعر .. لقد عاشت حتى ذلك المساء نهيا للهجمات . خدد
وها هي الآن بريئة فأخذت تقيس ما حل بها من انهاء .. خدد
كالحفريات ، وجنات وشفاة غائرة ، ثم تلك الجبهة الرائعة . كل
ذلك ينم عن وجه امرأة محكوم عليها .. نعم .. محكوم عليها
بالرغم من ان الناس قد اسقطوا عنها التهمة ، محكوم عليها بالوحدة
الابدية .. جمالها ، وقد اعترف الجميع من قبل بسحره الذى
لا يقاوم ، هذا الجمال متوفر لئساء اخريات لها وجوه تكشف عن
الأمم الذين وعن انعمات الجرح العميق ، ولكنهن يدين في
الخداع سترا لما خفى واظهارا لغير ما بطن .. فى تلك العربة
التمالية فوق هذا الطريق الوعر الممتد وسط أشجار الصنوبر
الكثيفة تضطرب امرأة عارية الوجه وهى تمسح فى بطء يدها
اليمنى جبهتها المضطربة .. ما هى الكلمات التى سوف
يتبناها بها برنار وقد كانت شهادته الكاذبة هى سبب نجاتها ؟
لاشك أنه لن يوجه إليها سؤالا ما فى هذه الليلة .. ولكن ماذا
عن القدر ؟ أظلمت تيريز عينها ثم عادت ففتحتها ، وأخذت تتعرف
على هذه المرحلة الصاعدة من الطريق ، بينما سمار الجوادان
الهيونا .. لعل من الخير لها الا تفكر فيما سيكون ، فربما كان
الأمر أبسط كثيرا مما يدور بخلدنا .. لا تفكر فيما سيكون ..
ولتستسلم الى النوم .. لتقب عن الوعى وعن العربة معيا ..
ما هذا الرجل الجالس خلف المنضدة الخضراء ؟ .. قاضى
التحقيق ؟ .. ؟ هو أيضا .. ؟ اليس يعلم ان الدعوى قد سويت ؟
كلا . أنه يهز رأسه من اليسار الى اليمين . لا . لا يمكن اصداق
القرار بغير وجود وجه لإقامة الدعوى . هناك وقائع جديدة قضا
ظاهرت .. وقائع جديدة ؟ ..
ادارت تيريز رأسها لكى لا يرى هذا الخصم المنيد الاضطراب
المرتسم على وجهها .. ها هو يسألها :

س عودي الى ذكرياتك ، يا سيدتى ، ألم تنسى شيئاً فى الجيب
الداخلى لتلك السترة القديمة ، السترة التى لا ترتديها الا فى
اكتوبر عندما تذهبين لصيد الحمام البرى ؟ ألم تنسى فيها شيئاً ؟
الم تخفى فيها شيئاً ؟ ..

لا وسيلة للاحتجاج .. انها تحتق .. لم يحول القاضى نظره
عن الفريسة ، وفى صمت رهيب وضع على المنضدة امامه علبة
صفيرة مخنوما عليها بالشمع الاحمر .. تستطيع تيريز ان تمسد
الكلمات المكتوبة على غلاف العلبة .. تلك الكلمات التى اندفع
القاضى يرددها فى صوت حاد كئيب : كلوروفورم ٣٠ جرام ،
اكوئيتين ٢٠ حبة ، ديجيتالين محلول ٢٠ جرام ..

انفجر القاضى ضاحكاً .. بينما صرخت فرامل العربية وهى
تحتك بالمحلات .. استيقظت تيريز من غفوتها .. امتلا صدرها
المتمدد بالضباب .. انه بلا شك سيل الضباب الابيض المتساقط
.. لظلمتها حلمت .. وهى طفلة مراهقة .. احلاما مزعجة كهذه
عند ما كان يورقها الخوف من الغلطات التى قد تضطرها الى
اعادة امتحان الشهادة الابتدائية .. انها فى تلك الليلة تنذوق
نفس الراحة التى كانت تشعر بها عند افاقها من كوايسها فى
تلك الايام البعيدة .. لم يكن يفسد هذا الاحساس اللذيذ الا بقية
من قلق بسبب عدم صدور قرار حفظ الدعوى بصورة رسمية ..
ولكنها تذكرت ما قيل لها : « تعلمين طبعاً ان القرار يجب ان
يبلغ الى المحامى أولاً » ..
فعاد اليها شيء من الاطمئنان ..

ها هى الآن حرة طليقة .. ما الذى تمنهه اكثر من ذلك ؟ ..
منهكون من هينات الأمور ان تجعل حياتها مستطاعة مع برنار ..
فما عليها الا ان تكشف له عن قرارة نفسها والا تترك شيئاً فى
الخفاء .. هذا هو الطريق السليم . ليبرز الى وضخ النهار كل
ما كان مستورا .. ولكن ذلك منذ الليلة فورا .. صممت تيريز
على ذلك وغمرها التصميم بالسرور .. قبل وصولها الى ارجلوز
سوف تحدد من الوقت تستمعا لاعداد اعترافها . كلمة « الاعتراف »
هذه هى التى كانت ترددها لصديقتها الثقية المتدينة .. ان دى

لاتراف فى ايام السبوت التى نخلت اجازتهما السعيدة ..
يا اختى آن ، اينها البريئة العزيزة ، اى وضغ هو وضغك انت
افى هذه القصة كلها .. ما اكثر ما يجهل الناس الاطهار ما يحيط
بهم وما يخالطون فيه كل يوم وكل ليلة ! ما اكثر ما يفكرون عن
الاعشاب السامة التى تثبت تحت اقدامهم البريئة !

لقد كانت على حق ، بلا شك ، تلك الفتاة الصغرة ، عندما
كانت تكرر القول لتيريز - الطالبة الثانوية ذات التفكير العقلى
والمزاج الساخر :

- ليس فى استطاعتك ان تصورى هذا الاحساس بالخلاص
الذى يتبع الاعتراف والفقران ، عندما يصحح الضمير صافياً
رسود المرء منا الى مزاوله حياته فى صفحة جديدة ..
حقاً ، لقد غمر شعور بالانفراج اللذيذ بمجرد ان صممت فى
قرارة نفسها على الاعتراف لزوجها بكل شيء ..
- سيعرف برنار كل شيء .. ساقص عليه كل شيء ..

ما الذى سوف تقوله له ؟ باى الاعترافات تبدأ ؟ هل تكفى
الكلمات لتهدئة ذلك التسلسل الهمم من الشبهوات الجامحة
والرقبات المصرة والانذاعات التى لا يمكن توقعها ؟ كيف يتصرفه
اولئك الذين يعترفون بجرائمهم ؟ ..

- اما انا ، فلست اعرف لى جرائم ، اننى لم ارد تلك الجريمة
التي اتهمونى بها .. لا اصرف ما الذى كنت اريده .. لم اعرفه
اقل الى اين توجه تلك القوة المجنونة الهائجة التى بداخلى والتي
من حولى .. لم اعرف ما الذى كانت تهدمه هذه القوة فى طريقها
لقد كنت انا نفسى فى رعب منها ..

الصباح البترولى المعروف يلقي ضوءه على حائط محطة
اليزان المطاي بالجير وقد استقرت الى جواره عربة صفيرة ..
ما اسرع ما تلف الظلمة كل شيء على بعد خطوات حول المحطة
من القطار الواقف هناك على الخط الفرعى ينهت فحيح كأنه
انفجيج مكتوم حزين .. اخذ جاردوير حقيبة تيريز وعاد يحمق فى
وجهها مرة أخرى كمن يحاول اقتراضها بيمينه .. لعل زواجها
لقد اوصته :

- انظر اليها جيداً لترى كيف هى وكيف تبتلع ..



واجهت تيريز حوذي أيتها بتلك الابتسامة الحلوة التي ظالم
قال الناس عنها
- إن المرة لايتساءل عما إذا كانت جميلة أو دميمة ولكنه يخضع
لسورها . . .

- طلبت من الحوذي أن يذهب ليحجز لها مكانا في القطار .
إنها تخشى اختراق قاعة الانتظار حيث جلست فلاحسان وعليه
وكبتي كل منهما سلالا وقد اخدعا تحركان رأسيهما وهما منهتمتان
في اشغال الأبرة .

عندما عاد الحوذي بالتذكرة قالت له أن يحتفظ لنفسه بياقي
النقود . فلمس بيده حافة قبعته وبعد أن جمع في يده لجم الخيل
التفت مرة الحيرة ليلقى نظرة على وجه ابنة سيده .

لم يكن القطار قد تجمع شمله بعد . كم من مرة ، فيما مضى ؟
كانت تيريز لاروك وآن دي لآتراف تسعدان لساعة الانتظار هذه ؟
في محطة يزان ، وهما راجعتان إليها في فترة الإجازات أو عند
العودة الى المدرسة - كانت الصديقتان تآكلان في حانة القرية
الببيض المقلبي على شرائح من لحم الخنزير ثم تنطلقان ، وقد لغت
كل منهما ذراعهما حول أخضر زميلتهما . على هذا الطريق الذي تكسوه
الليلة الغلظة السوداء والكتابة . لم يكن هذا الطريق ، في تلك
السنوات الخوالي ، إلا ساطع البياض في ضوء القمر . كانتا تفرقان
في الضحك لمنظر ظلالهما وقد استطالت واختلطت وتلاشت . كان
بعديهما يدور بلا شك حول مدرساتهما وحول زميلتهما في
الدراسة - كانت احدهما تدافع عن الدبر الذي تعلم فيه بينما
تطرى الأخرى مزايا ومحاسن مدرستها الثانوية .

- آن . . .

- لفظت تيريز هذا الاسم بصوت مرتفع في الظلام . يجب أن
تبدا حديثها مع برنار عن آن . برنار . . ! ياله من رجل دقيق . . !
قادر على تمييز المواقف بعضها عن بعض وعلى وضع الواحدة منها
بميدة عن موضع الأخرى . . ! انه يجهل تلك السرايب الخفية
التي تمزج ما بين المشاعر وتخلط الأحاسيس ببعضها البعض .

أيقف السبيل الى ادخاله في تلك المناطق المبهمة التي ظالم عاشت
أفيها تيريز وتجرمت فيها كزوس العذاب ؟ ولكن هذا ما يجب
الوصول اليه . لن يكلفها الأمر ، بعد قليل عندما تدخل الى تلك
الغرفة ، إلا أن تجلس متهاكلة على حافة السرير ثم تنطلق مستدرجة
برنار من مرحلة الى مرحلة الى ان يوقفها هو عن الاسترسال في
الكلام ويقول :

- كفى ؟ اني فهمت كل شيء الآن . انهضى . لك الغفران . .

اخترقت تيريز حديقة ناظر المحطة وهي تتحسس ظريفها
وشمت عبر زهور الكرنفونيم من غير أن ترواها . عربة الدرجة
الأولى خالية تماما . على ان النور المنبعث من مصباحها الضئيل
هاكان يكفي لاضاءة وجهها . لم تستطع القراءة . واني القصص لم
تكن فاترة الى جانبي قصة حياتها الوهيبية ؟ انها ربما ماتت من
العار أو من القلق أو من الندم أو من الأعياء ، ولكنها قطعاً ماكانت
لتموت من الملل وحده .

استراحت في جلستها في ركن المتعد واغلقت عينيها - هل
يمكن لامرأة لها كل هذا الذكاء وكل هذه الفطنة أن تعجز عن أن
تجد هذه المأساة شيئاً مفهوماً واضحاً ؟ نعم - ضياعها يرنان
من يدها بعد انتهائها من الاعتراف وبوقفها قائلاً :

- اهضبي يا تيريز في سلام . لا تتركي القلق ينطرق الى بالك
بعد اليوم . سنقضي معا في هذا البيت ، في ارجلوز ، فنتنظر الموت
من غير ان نفرق بين الاوضاع التي استقرت وقضى فيها الأمر .
اني ظمان . . اهبطي أنت الى المطبخ واعدي لي كوباً من عصير
البرتقال .

ساكرعها حتى ثمالتها ولو بدت لي عكرة . ليس يهمني ان
يذكرني مذاقها بتلك الكوب من الشيكولاته التي شربتها فيما مضى
ذات يوم في الصباح . هل تذكرني نوبات القىء التي
انتابتنى ؟ كانت يدك الحبيبة تستند رأسي وما كنت لتجلى عينيك
عن ذلك السائل الأخضر الكريه ، لم تكن نوبات الاغماء التي
تصيبني لتخيفك ، ومع ذلك شسحب لولك في تلك الليلة التي
اكتشفت فيها ان ساقى قد انعمت فيها الحركة وزال عنها

الإحساس . كنت ارتجف . هل تذكرين ؟ وهذا الطيب الذي
الدكتور بيدامي الذي كان يدهشه ان تنخفض درجة حرارتي
وان يضطرب نبضي الى ذلك الحد .»

قالت تيريز تخاطب نفسها :

— يا الهي . انه لم يفهم كلامي . يجب ان اعيد كل ماقلته .
منذ البداية .»

اين تبدأ اصمالتا ؟ ان نصيينا من القدر ، اذا ما اردنا ان نزله
من غيرهِ وننظر اليه منفردا ، ليمثل في ذلك التبت الذي يستحيل
اقتلاعه بجذوره كلها — هل ستضطر تيريز في رواية اعترافها الى
الرجوع لظفولها الاولى ؟ ولكن اليست الطفولة نفسها هي نهاية
ووصول لما هو قبلها ؟

طفولة تيريز : لقد كانت ثلوجا تغطي صفحة المنبع الذي انبثق
منه اكثر الانهار كدرا — في المدرسة الثانوية بدت وكانها تمشي
لاهية غائبة عن الماسى النافهة التي كانت تمزق زميلاتها . ولطالما
هافت المدرسات الى هؤلاء الزميلات مثلا يحتدى هو تيريز
لاروك . كن يقلن في اعجاب

— تيريز لاتطمع في اية مكافاة اكثر من السعادة التي تفشاهما
هندما تحقق في ذاتها الطراز السامى للإنسانية . ان ضميرها هو
الضوء الوحيد الذي تستضيء به . وهو يكفيها . انها نجد فيما
تسهر به من كبرياء لانتسابها الى خلاصة الجنس البشرى عونا
تستند اليه خيرا مما يفعله الخوف من العقاب .

— هذا ماكانت تردده احدى مدرساتها دائما . ولقد اخذت
تيريز تسائل نفسها :

— هل كنت سعيدة الى هذا الحد فعلا ؟ .. ام هل كنت نيرة
صاذجة ؟ .. ان كل ما سبق زواجي يكتسى في مخيلتي هذا
المظهر الطاهر النقى . وهو بلا شك تقيض ذلك التلوث الذي لايمحي
أبدا ، التلوث المصاحب لليلة العرس . ان المدرسة الثانوية التي
هشت فيها قبل ان اصبح زوجة واما تيدوي في نظري الان فردوسا .
ولم اكن ادرك هذا في ذلك الوقت . كيف كنت استطيع ان ادرك

ان تلك السنوات السابقة على حياتي كانت هي حياتي الحقيقية !
الظهر ! .. لقد كنت طاهرة ! .. ملاكا ! .. لقد كنت ملاكا نعم ! ..
ولكني كنت ملاكا مشحونا بالشهوات . لقد تعذبت على الرغم مما
كانت تزعمه مدرساتي ، وعذبت غيري ايضا . كنت اتلذذ بالالم
الذي احدهه للآخرين وأسعد بالالم الذي تحدثه لي صديقاتي .
يا له من عذاب طاهر لم يخالطه ندم ! . ان اسباب سروري البريء
كانت كلها ولبدة هذه الالام وهذه الافراح .

ان اعز ما كانت تقرح له تيريز كان عند حلول فصول الصيف
تذهب لمصاحبتها تحت اشجار البلوط في ارجلوز . كانت بها
بحاجة لان تقول لتلك الطفلة التي تتلقى تربيتها عند راهبات
الساكر كير : « لكي اكون في مثل طهرك هذا لا حاجة بي لارتداء
اكل هذه الشروط ولا لتكرار كل هذه الصلوات . . » ان ما يحيط
آن دى لاتراف من براءة وطهر ليس في جوهرة الاجهلا . ان
راهبات الساكر كير يقمن آلاف الحواجز بين الحقيقة والفتيات
الصفيرات اللاتي ينشئنهن . ولكم كانت تيريز تحتقر هؤلاء الراهبات
الخلطهن بين الفضيلة والجهل . لطالما عابرت آن في تلك الايام
الصفية البعيدة في ارجلوز . :
— انت يا عزيزتي .. انت لا تعرفين الحياة . . .

تلك الايام الصيفية الحلوة .. تذكرتها تيريز وهي في ذلك
القطار الصغير الذي بدأ أخيرا يتحرك بعد طول وقوف . اعترفت
بينها وبين نفسها ان تلك الايام الخوالي هي التي يجب ان ترجع
اليها اذا ما اردت ان تجلوا نظرتها للأمر . يا لها من حقيقة عجيبة
كيف يدخر فجر حياتنا الطاهر بالاعاصير الجارفة التي تظل فيه
معلقة لا تنفض فكيف يكون ذلك الصبح المشرق ذو الزرقة الزاهية
إشارة نحس لفترة ما بعد الظهر والمساء ونذبرا لما سيحل فيها
ياكون من كوارث: خضرة مدمرة وأغصان مكسرة ووحل لا اول له ولا
آخر ؟ .. لقد عاشت تيريز من قبل لا تشغل ذهنها بشيء . لم
يحدث في اية لحظة من لحظات حياتها ان اهتمت بارهاصات
الفكر والتدبير . . لقد خلت حياتها من المنحنيات المفاجئة
وسارت في طريق سهل المنحدر . لقد كان هبوطها في هذا الطريق



ليتا قى اول الامر ، ثم سريعا بعد ذلك . ان المرأة الضائعة فى هذا المساء هى نفسها المخلوقة المشرقة التى عاشت ايام الصيف الجميدة فى ارجلوز حيث تعود الليلة هاربة متخفية فى الظلام .

بالشدة ما بها من تعب واعياء ! ما جدوى البحث عن تلك الاسباب الخفية التى حركت ما كان كامنا من خلال زجاج النافذة لا ترى المرأة الشابة شيئا غير انعكاس صورة وجهها الشاحب . هبطت سرعة سير القطار الضئيل وانطلق من القاطرة صغير طويل انه يقترب فى حذر من احدى المحطات . مصباح يحركه ذراع انسان ، نداءات متبادلة بلهجة العامة ، صرخات حادة آتية من صفار الخنازير التى يفرغونها . هذه بلدة اوزيست . لم تبق غير محطة واحدة ثم يصل بعدها القطار الى بلدة سانت كلير . ومنها الى ارجلوز ستضطر تيريز الى ركوب عربة صغيرة تقطع بها هذا الجزء الاخير من الرحلة . ما قصر مابقى لها من وقت لاعداد دفاعها .

- ٣ -

ارجلوز . . انها حقا على حافة العالم التصوى . بقعة من تلك البقاع التى يتعدى السير الى ما وراءها . انهم يطلقون عليها هناك اسم « الربيع » . بضعة منازل ريفية لا كنيسة لها ولا عمودية ولا جبانة . البيوت مبشرة حول حقل من الشوفان على بعد عشرة كيلو مترات من سانت كلير . هذه المسيرة يقطعها العابر فى طريق وعر وحيد . طريق مليء بالحفر والشقوق . ومن الجانب الاخر لارجلوز لا يوجد غير درب رملى تتوه رسومه طوال ثمانين كيلومترا حتى يصل الى شاطئ الحيط . اراض بور تكسوها البركة والمستنقعات وتتناثر فيها اشجار السنوبر الهزيلة . انها منطقة اللاند التى تتلون فيها الاغنام فى نهاية فصل الشتاء بلون الرمان . . فى هذا الربيع الخالى نشأت كبريات العائلات التى تقطن سانت كلير . فى منتصف القرن الماضى شرع اجداد اولئك الذين يعمرون الآن تلك القرية قى استغلال عصارات الاشجار واخشابها لزيادة الموارد الضئيلة التى كانت تغفلها لهم قطعان الاغنام ، فتحولت بيوتهم فى ارجلوز الى مساكن ودواوير للمزارعين . وما زالت آثار النعمة

- ٤٤ -

الثابرة بادبة الى اليوم ، ترى فى النقوش المحفورة على عتبات الابواب والتوافد وعلى رخام المدافئ الباقية على الزمن ، دور عتيقة تتداعى عاما بعد عام حتى لتكاد اسطح بعضها من قرظ ما بها من جهد واعياء تلامس الارض بانحنائها الكبرى .

لكن بيتين من تلك البيوت العتيقة بيتان ما زالوا الى اليوم سكننا لصحابهما : عائلتا لاروك ودى كويرو . لقد حرصت المائلتان على الاحتفاظ لداريهما فى ارجلوز بما كانتا عليه وقت انتقالهما اليهما عن الاجداد . جيروم لاروك ، عمدة بلدة ب . وعضو مجلسها البلدى كان يحتفظ بالقرب من ابواب البلدة بمقره الرئيسى ولكنه لم يشا ان يغير شيئا من معالم مزرعته فى ارجلوز . لقد ورث تلك المزرعة عن زوجته التى ماتت فى اثناء الوضع . وكانت تيريز ما تزال فى المهد طفلة . لم يكن الاب يدهش اذن لما يراه من ميل اينته ميلا شديدا الى قضاء اجازتها فى تلك المزرعة . فمما ان يحل شهر يوليو من كل عام حتى تهرع تيريز الى ارجلوز تعيش فيها فترة الصيف فى رعاية اخت كبرى لايبها تدعى العمة كلارا ، عجوز عانس صماء ، تعشق هى الاخرى هذه المزرعة لانها - كما كانت تقول - لا ترى فيها شفاها تتحرك بالكلام ولا يسمع احد فيها غير صفير الرياح بين اشجار السنوبر . على ان ما كان يستريح له مسيو لاروك من ذلك هو ان ارجلوز اذ تبعد عنه ابنته لفترة من الزمن كانت تقرب ما بين هذه الابنة وبين برنار دى كويرو الذى يتحتم عليها ان تتوجه فى يوم من الايام تنفيذ ا لرغبة العائلتين ، وان كان الاتفاق على ذلك لم يصبح رسميا بعد .

وبرناردى كويرو هذا ورث من ابيه بيتا فى ارجلوز مجاورا لبيت عائلة لاروك . لم يكن احد يراه فى هذا البيت قبل افتتاح موسم الصيد ، ولم يكن يتخذ منه مبيتا له الا فى شهر اكتوبر حيث نصب بالقرب منه برجاً لاقتناص الحمام البرى . اما فى الشتاء فكان هذا الشاب العاقل يتابع دراسة الحقوق فى باريس ، ولم يكن يقضى مع عائلته فى الصيف الا اياما قائل ، فقد كان يضيق ذرعا بفكتور دى لاتراف زوج امه الذى اقترنت به بعد قولها من ابيه ، وهو رجل خالم ، الوفاضى يتحدث بلدة سانت كلير

- ٢٥ -



بأسرها عن أسرافه ونفقائه الباهظة . ان أخته لأمه - آن سمزالت
 لقي نظره طفلة صغيرة لا تستحق منه اهتمام . هل كان حظ تيريز
 من اهتمامه كحظ آن ؟ ان الناس جميعهم يعتبرونها منذ الآن
 زوجين . اليس يبدو ان ما يملكه أحدهما إنما خلق ليندمج فيما
 يملكه الآخر .! وكان الشاب العاقل الرزين يتفق في ذلك مع
 الناس جميعا وان لم يترك من الأمور شيئا للصدفة المجردة . أنه
 يحرص مفاخرها على اتباع خير ما في الحياة من نظام . ولطالما ردد
 هذا الشاب المائل الى السمثة :

— لن يصيب المرء الا أخطاؤه وما رجنت يده .

ان وقته مقسم بالقسطاس بين العمل واللهو وان كان في ذلك
 كله لا يتكف عن طيب الطعام ولا عن جيد الشراب ولا عن لذة الصيغ
 بوجه خاص . انه يعمل ، كما تقول أمه ، « على طول الخط » لان
 الواجب يقضى بان يكون الزوج أكثر علما من زوجته . ألم تستهن
 تيريز في كل مكان بالدكاء والفتنة ؟ ان لها لذهنا حادا .
 هذا لاشك فيه .! ولكن برنار خبير بالاسباب التي تخضع لها
 المرأة . ولطالما قالت له أمه ان من الخير ان يمد قدميه في كلا
 المسكرين فقد يستطيع حموه لأرورك ان يساعده في يوم من الأيام .
 كان من المقدر ، عندما يبلغ سن السادسة والعشرين وبعد ان يقوم
 برحلات ، يمد لها العدة منذ الآن ، الى ايطاليا واسبانيا والبلاد
 الواطئة ، ان يتزوج من اغنى فتيات اللاند وأربحهن عقلا ، ربما
 لم تكن أكثرهن حسنا ولكن « المرء لا يتساءل عما اذا كانت جميلة
 أم دميمة ولكنه يخضع لسحرها »
 ابتسمت تيريز للصورة الكاريكاتورية التي رسمتها في مخيلتها
 لبرنار وقالت لنفسها :
 — انه في الواقع اطرف من كثيرين من الشبان كان يمكن ان
 يتزوج بهم . . .

— ان نساء اللاند في الواقع يتفوقن كثيرا على رجالها اللانين
 يعيشون فيما بينهم لا يتخطون بغيرهم . لقد استولت اللاند على
 أفئدتهم وحينما ارتحلوا فهم يعيشون فيها بانكارهم . وليس من
 لهم يحلو لهم الا ما يوجد به عليهم . أنهم يعتبرون من الخيانة

الأرضهم ومن الجحد لها ان يفقدوا الشبه بينهم وبين مزارعيهم
 وان يتكلموا بغير لهجتهم المامية وان يقلعوا عن سلوكهم الجاف
 وأسلوبهم الوحشي في الحياة ألم يكن برنار يخفي تحت مظهره
 القاسي نوعا من طيبة القلب ولين العريكة ؟ لقد قال المزارعون عندما
 أشراف على الموت :

— لن يوجد من بعده سيد نبيل في هذا البلد !

نعم . طيبة القلب مع قدر كبير من اعتدال الذهن وسلامة
 الطوية . انه لا يتكلم قط عن شيء لا يعرفه فهو يعلم قدر نفسه
 وحدودها . لم يكن في مراعاته دميما كل الدمامة هذا الفتى
 المحي المنصرف الى مطاردة الأراب البرية في الأحرش أكثر من
 انصرافه الى مطاردة الفتيات الحسان .

لم يكن هو الذي قفز الى مخيلة تيريز المسئلة المينين المستندة
 برأسها الى زجاج نافذة القطار . لا . لم يكن هو ممتطيا دراجته
 في الصباح الباكر على الطريق الموصل من سانت كلير الى ارجلوا
 في حوالي الساعة التاسعة قبل ان يصل فيظ الصيف الى ذروته .
 لم يكن الخطيب الموعود المنصرف عنها ، ولكن أخته الصغيرة
 آن وقد التهب وجهها نارا وانتشرت الخنافسر تلمع بين اشجار
 الصنوبر وبدأت جمرات اللاند تنقد تحت زرقعة السماء بينما
 ارتفعت ملايين الذباب من الاغصان المائلة - هاهي العمة كلارا
 تقول لان :

— ضعي معطفك قبل الدخول الى الصالون . انه في برودة
 الثلجة . . . ولن تشربي قبل ان يجف عرقك . . . يا صغرتي . . .
 — ان تحاول عبثا ان تصرخ ببسارات التحية للمرأة الصماء
 وتيريز تقول لها :
 — لا تبجي صوتك يا عزيزتي ، انها تفهم كل ما يقال لها من
 الشفاه . . .

ولكن آن تظل تحاول وهي تطبع على فمها الصغير كلماتها في
 التواءات واشكال عجبية . العمة كلارا ترسل الكلمات على عواهنها
 وتجبب بكل ما يتراءى لها الى ان ينتهي الامر بالصدفتين الى
 الفراق بعيدا لتضحكا ملء شدقيهما



أخذت تيريز تستعيد ، وهى على مقعدهما في هذا القطار المظلم ؟
 تلك الايام الصافية من حياتها . انها ايام صافية حقا ولو لم يكن
 يترها غير شعاع ضئيل من السعادة الهيمه . لم تكن تدرى في ذلك
 الوقت ان هذا الهناء المشوب بالكدر هو كل ما قدر لها ان تحصل
 عليه في هذا العالم . لم يكن ينهها شيء الى ان نصيبها من الدنيا
 انما هو هذا الصالون العتم في وسط الصيف القادح على هذا
 المقعد المكسو بالحبر الاحمر بالقرب من ان التي اخذت تلقى
 صفحات مجموعة من الصور فردتها فوق ركبتيها المضمومتين .
 من اين لها هذه السعادة ؟ هل تشترك ان مع تيريز في ناحية
 واحدة من نواحي الذوق والمزاج ؟ ان ان تكرد القراءة ولا تميل
 الا الى اشغال الحياكة والترنوة الجوفاء والضحك . لم يكن لها
 ولى تبديه في اى شيء بينما كانت تيريز تلتهم في نهم روايات بول
 دي كوك وكتب « احاديث يوم الاثنين » و « تاريخ الحكم القنصلى »
 وكل ما كانت تشر عليه راكدا في جوف خزانات هذا البيت الريفى
 العتيق . لا لم يكن بينهما من مزاج مشترك الا الرغبة في البقاء
 معا طوال تلك الامسيات التي تحاصر فيها نيران السماء الرجال
 المتحصنين داخل عمته البيوت . كم من مرة قامت ان الى النافذة
 تفتحها لترى هبطت حرارة الجو ولكن سرعان ما كان الضوء وهو
 في فسوة المدن المنصهر ، يغمر الحجرة فجأة فيبدو وكأنه فيه
 لهب يشوى كل شيء فتمود مسرعة الى غلق النافذة والانزواء في
 وكر القفاة .

حتى عند الاصيل في الوقت الذي تكتفى فيه الشمس بصيغ
 ما تحت اشجار الصنوبر باللون الاحمر والذي تظهر فيه آخر خفاء
 بجادة ساعية على مقربة من اديم الارض ، كانت حرارة الجو بانزال
 متراكمة راكدة اسفل اشجار البوط . في تلك اللحظات كان يحلو
 للصدفتين ان تتمددا على حافة الحقل كما لو كانت على شاطئه
 البحيرة بينما السحب المحملة بالعاصفة تعرض امام ناظرهما صوبا
 متفيرة سابعة في الفضاء . فما تكاد ان تشير لصدقتها الى تلك
 البراة المخنقة التي يرسمها السحاب في الجوى حتى يراه تيريز
 وقد تحولت الى حيوان عجيب متمدد .

كانتا تستظيمان في شهر صيتمبر ان تخرجا بعد الغداء وان
 تنفذا الى داخل بلاد الظما ، فقد خلت منطقة ارجلوز من كل اثنى
 لجداول الماء ، وعلى المرء ان يسعى طويلا بين الرمال قبل ان يصل
 الى المنابع التي تغذى المجرى المعروف باسم لاهور . انها
 تنتشر عديدة تلك المنابع ، وسط مساحات صغيرة من العشبي
 هند جذور اشجار الكستناء . ان ارجل الفتاتين العارية كانت تفقد
 الشعور بالحرارة في هذا الماء الثلج ، ولكنها سرعان ماتمسود الى
 حالة السخونة بمجرد جفافها . هناك في احد الاكواخ التي باوى
 اليها الصيادون في شهر اكتوبر عندما يخرجون لاقتناص الحمام
 البرى كانت الفتاتان تجلسان على نحو ماتفعلان في ذلك الصالون
 المظلم . لم يكن يجرى بينهما اى حديث ، او اية كلمة . كانت
 الدقائق تمر متتابعة في هذه الجلسات البريئة من غير ان تصدر عن
 الفتاتين اية حركة ، وكان كلا منهما صياد ينظر الى الطير يقرب
 وقد رفع اصبعه بلامه الصمت والسكوت . وكان يبدو لهما وهما
 في تلك اللحظات ان اية حركة عارضة قد تقضى على هئائهما هذا
 المهيم العفيف . كانت اى هي دائما البادئة بتديد هذا الصمت
 عندما تقف منتصبه وتمطلى . فهي متعجلة لقتل بعض القنابر في
 وقت الغسق . اما تيريز فكانت تعقت هذه اللعبة ولو انها تسمع
 صديقتها فيها ، فهي لا تروى من الوجود الى جوارها . كانت ان
 تاخذ البندقية عيار ٢٤ المعلقة على الحائط لانها عند اطلاقها لا تترد
 الى كتف الرامى . اما صديقتها فكانت تظل قابضة فوق الرية
 العالية تنظر اليها وهي وسط الشوفان تصوب سلاحها نحو بين
 الشمس كأنها تريد اطفاها . كم من مرة سدت تيريز اذنيه بيديها
 بينما تنقطع في زرقة السماء صرخة سكرى وتسرع الصالدة لتلقط
 الطائر الجريح وتضقطه في يدها بحرص ومناياة لم تخنعه رهي
 يمس بسفتتها ريشه الدافء .

— ستاتين الى غدا ؟

— اوه . . . لا . . . ليس كل يوم ؟
 انها لم تكن تمنى رؤيتها كل يوم . هذا قول معقول لاه حه
 للاعتراض عليه . وما من احتجاج عليه الا بدا في نظر تيريز نفسها

تسبباً غير مفهوم . أن أن تفضل الاعداد ثمانية ، وما كان هنالك من شيء ، بلا شك ، يحول بينها وبين العودة . ولكن هل من سبب يدعو الى تكرار اللقاء بينهما كل يوم ؟ كانت أن تقول انها تخشى أن ينتهي بهما الامر الى الخصام والتنافر .. فتدرد عليها تيريز قائلة :
- نعم ... نعم ... لا تجعلى من ذلك عليك فرضا .. عودى
الرؤيتى كلما شئت .. حينما لا يكون لديك ما هو احلى من المحبى ..
كانت الفتاة المراهقة تسرع على اثر ذلك فتمتطي دراجتها ثم تختفى في الطريق الذى بدأ يتلفف في الظلام وهى ترسل الدقات من جرسها .

كانت تيريز تعود وحدها الى البيت بينما المزارعون يرسلون اليها تحياتهم من بعيد ، ويتعد الاطفال عن طريقها فلا يقربونها ، انها الساعة التى تنتشر فيها النماج تحت اشجار البلوط ثم تفرغ كلها معا جارياً بينما الراعى يطلق صرخاته . كانت عمتها في انتظارها على عتبة المنزل وككل عجوز صماء اندفعت تطلق الكلمات سيلا لا ينقطع حتى لاتوجه اليها تيريز كلاما فلا تسمعه . ماهذا الشعور بالقلق الذى يساورها ؟ لم يكن بها ميل الى القراءة ولا ميل الى أى شيء . ها هى قد عادت تهيم على وجهها من جديد بينما عمتها تصرخ قائلة :

- لابتعدى .. ستعد المائدة حالا ..

كانت تعود الى حافة الطريق وقد خلا من كل اثر للحياة على مدى مرمى بصرها . الجرس يندق على باب المطبخ ربما اقتضى الامر هذا المساء ان يضاء المصباح . لم يكن الصمت القابع على التكون في تلك اللحظات بأثقل على هذه الشابة العائسة منه على المرأة الصماء الجالسة بلا حراك مربعة ساعديها على المنضدة .

برنار .. برنار .. كيف ادخل بك الى هذا العالم المضطرب ؟ انت الذى تنتمى الى الطائفة التى لا ترى ، طائفة البسطاء التى لا تهتد ؟ .

قالت تيريز لنفسها : « لكن سوف يقاطعنى عند كلماتى الاولى ويقول لى : لماذا تزوجت بى ؟ . اننى لم اكن اجرى وراءك » ..

حقا .. لماذا تزوجت به ؟ . انه لم يتمهل قط هذا الزواج .. تذكرت تيريز كيف كانت مدام فكتور دى لاتراف أم برنار ، تقول لكل من قابلها :

- كان فى استطاعته ان يتمهل .. ولكنها هى التى ارادت ذلك .. هى التى ارادت ذلك .. هى التى ارادت ذلك .. انها لسوء الحظ لا تتبع نفس المبادئ التى تتبعها ، فهى مثلا تدخن كجندى المطافئ . هذه نزوة بلا شك تريد بها ان يكون لها طابع خاص . ولكن لها طبيعة مستقيمة وفيها صراحة الذهب . انما سرعان ما تتمكن من استعادتها الى الآراء السليمة .. حقا ، لسنا نرى كل شيء فى هذا الزواج باسمنا .. نعم .. هناك الجدة بيلا .. هذا امر اعرفه جيدا .. ولكنه مضى فى طى النسيان .. اليس كذلك ؟ . لا يكاد المرء ان يقول كانت هناك فضيحة .. لقد احكم الكتمان حولها سريعا .. هل تعتقد انت فى صحة قوانين الوراثة ؟ ان طريقة تفكير الأب نفسه فاسدة .. هذا شيء معروف .. ولكنه لم يعط ابنته الا كل مثل طيب .. انه قدس ملحد .. ثم انه طويل الباع واسع الحول .. ونحن فى حاجة الى الناس جميعا .. واخيرا هناك ما يدعو المرء الى ان يمر على بعض الاشياء من الكرام .. ثم .. ولك ان تصدقنى اذا شئت .. انها اغنى منا .. امر غير معقول طبعاً .. ولكنها الحقيقة .. وهى فوق ذلك كله تعبد برنار .. الامن الذى يجعل كل شيء على ما يرام .

نعم .. لقد عبثته ، فما كان اسير اليها من الوقوف هذا الموقف الذى لا يقتضيها كبير عناء ، اذ يكفيها فى الصالون فى ارجلوز اوتحت اشجار البلوط على حافة الحقل ان ترفع نحوه عينيهما وهى خبيرة بطريقة شحنتها براءة العشق . وكان جنو هذه الوالهة عند قدمى الفتى يملؤ غرورا من غير ان يثر لديه الدهشة . ولطالما قالت له امه : « لا تلعب معها ، انها تقتل نفسها .. »

« لقد تزوجته لانى .. » قالت تيريز لنفسها ذلك وهى مقابلة الجبين - وقد وضعت يدها على عينها واخذت تبحر فى ذاكرتها . هل كان الدافع لها هو تلك السمادة الصباحية التى كانت تحدد بها

- ٢٤ -

- ٢٥ -

لان تصبح زوجة لآخرى صديقتها آن لا .. لقد كانت آن هي التي
تسهر بالجانب الاكبر من هذه السعادة ، اما تيريز فلم يكن هذا
الرباط يعنى شيئا كثيرا بالنسبة لها .. حقا ، هل يجدى الخجل
من الحقيقة شيئا ؟ . الم تكن الالفان من الهكتارات التي يمتلكها
برنار شيئا هاما في نظرها ؟ . كثيرا ما قالوا عنها : « ان الملكية
تختلط دائما بدورها .. » ولطالما كانت تيريز - بعد الانتهاء من تناول
وجبات الطعام الطويلة ، وفي الوقت الذي يتناول فيه الرجال كؤوس
الشراب - تبقى بينهم تستمع الى احاديثهم حول المزارعين واخشاب
الناجم وعصارات اشجار الصنوبر وسوائل التريبتين . ان تقديرات
الاملاك وحساباتها دائما تستهويها .. لا شك ان سيادتها على
المساحات الشاسعة من الغابات كانت تبهرها .. « لقد كان هو
الآخر يشق اشجار الصنوبر التي املكها .. » بل لعل تيريز قد
استجابت في ذلك الى شعور آخر اكثر ابهاما هو الذي تحاول الآن
ان تبرزه الى الضوء في ذهنها . الم يكن ما تبحث عنه في هذا
الزواج ليس هو السيادة ، وليس هو التملك وانما هو اللجا التي
يحتويها ؟ . الم يكن الدافع الذي اسرع بها الى اتمامه هو الشعور
بالرعب والفرح ؟ . لقد كانت في طفولتها رصينة رزينة وكانت في
مراهقتها صبية محبة للبيت وشؤونه ، ثم احسبت بالحاجة الى
سرعة الانتظام في المركز المناسب لها واحتلال مكانها الدائم . لقد
ارادت ان تؤمن نفسها من خطر لا تدري ما هو . لم تظهر تيريز قط
من قبل تعقلا مثل الذي اظهرته في فترة خطوبتها . الم تكن تستعد
للاندماج ضمن كتلة ماثلية ؟ . الم تكن تسعى الى الاستقرار ، الى
سلوك طريق الجماعة المنظمة ، الى الخلاص والنجاة ؟ .

ذلك الربيع الذي عقدت فيه خطبتهما - كانا يسيران هي وهو
في طريق الرمال الذاهب من ارجلوز الى فليميجا . اوراق البلوط
المتة معلقة بالاغصان كانها يقع ثلوث صفحة السماء الزرقاء .
الارض مكتسبة رداء من السرخس الجاف وقد برزت في ثناياه
هنا وهناك سيقان جديدة في لونها الاخضر الليموني . قال برنار :

« تنهى لسيجارتك ... قد تحدثت حريقا آخر ... لم تبق في
المنطقة مياه ... » سألته تيريز :

- هل صحيح ان السرخس يحتوى على حمض السهيدريك ؟ ،
لم يكن برنار يدرى هل يحتوى هذا النبات على ما يكفي من
السم لقتل انسان ، ولكنه قال لها في رقة :

- هل بك شوق الى الموت ؟ .

ضحكت وهو يقول لها انه يريد ان تصيح اكثر بساطة .
اغلقت تيريز عينها وتركت راسها بين يديه الكبيرتين يطوقها ويهمس
في اذنها :

- مازال هذا الراس عامرا ببعض الآراء الفاسدة ...
قالت :

- عليك انت ان تزيلها يا برنار !

وقفا يشاهدان البنائين وهم يضيفون حجرة الى مباني مزرعة
فليميجا . ان اصحاب المزرعة ، المقيمين في بوردو ، ينوون تخصيص
هذه الحجرة الجديدة لاقامة اصفر ابنائهم المصاب بذات الرئة
بعد ان ماتت ابنتهم بهذا الداء نفسه . عائلة ازيفيدو هذه ... لم
يكن برنار يشعر نحوها الا بالاحترار والازدراء .

انهم يقسمون اغلب الايمان على انهم ليسوا من اصل يهودي
... ولكن يكفي النظر اليهم ... وهم فوق ذلك مصابون بمرض
السل ... وبكل الامراض ...

تيريز هادئة لا تتكلم . تذكرت ان آن ستعود قريبا من دين
سان سبستيان لعقد قرانها . ستصحب ابن ديجلهم الى الكنيسة
وتجمع من تبرعات المصلين . لقد كتبت الى تيريز تطلب منها
موافاتها « برجوع البريد » بوصف للثياب التي سوف ترتديها
في حفلة زفافها فتيات الشرف الاخريات . وتسال :

- الا يمكن ان تبعثي لي بعينات من القماش ؟ اليس من
مصلحتهن جميعا ان يخترن الوانا متناسقة . ؟

لم يعرف قلب تيريز من قبل هدوءاً مثل هذا الهدوء أو ما
كانت تظنه هدوءاً ، وهو في حقيقته نعاس الحياة الكامنة في صدرها
أو لعله يباتها ...

- ٤ -

يوم الزفاف الخانق في كنيسة سانت كلير الضيقة حيث تعلو
ثرثرة السيدات على صوت الأرغن المتهالك ، وحيث تغطي عطورهن
هلى عبيق البخور . في ذلك اليوم أحست تيريز بالضيق . لقد دخلت
بلا شعور في القفص ، تلك الطفلة البائسة ، ولم تفق من غفلتها الا
على فرقة الباب الثقيل وهو يفلق من خلفها . لم يتغير شيء في
بجياتها ولكنها أحست انها لن تستطيع بعد اليوم الانفراد بنفسها
الضائعة . في مجاهل الأسرة الكثيفة ، كان عليها ان تخفى عواطفها
في صدرها جاعلة من هذه العواطف ما يشبه النار المدسوسة تحت
الأعشاب تشعل شجرة من اشجار الصنوبر ثم شجرة أخرى ثم
تنتشر من مكان الى آخر فتحيل الغابة الى شعلات متقدة . ليس
بين وجوه هؤلاء القوم وجه تستطيع ان تريح عينها بالنظر اليه
غير وجه آن . لكن السرور الصيواني الذي غمر هذه الشابة
عزلها عن تيريز . أى سرور هذا ..؟ هل تجهل آن انهما منذ تلك
الليلة ستفترقان عن بعضهما بلا عودة لا ولن تقتصر الفرقة بينهما
على المكان فقط ، خصوصا وان تيريز كانت في لحظة التألم لما سوف
يصيب جسدها البريء من تلوث لن تمحى آثاره أبدا . ستبقى آن
على ذلك الشاطئ الذي تنتظر فيه المخلوقات الطاهرات بينما تدوب
تيريز وسط قطيع اللواتى قضى منهن الوطر . تذكرت انها ، وهى في
يهو الكنيسة تميل على ذلك الوجه الضاحك الصغير تقبله وقد
أرتفع نحوها ، لاحظت فجة الفراغ الذي طالما حلقت من حوله
عوالم واسعة من الامم المبهم والسرور الساذج . اكتشفت في مدى
يضع ثوان الفارق اللانهائى بين القوى الفاضلة التي تتعمل في قلبها
وبين ذلك الوجه الحلو الملطخ بالمساحيق .

ظل القوم زمنا طويلا في سانت كلير وما جاورها لا يحدث لهم
بعد ذلك اليوم ، الا عن هذا الزفاف وعن اله ليمة العاصرة التي

أقيمت بمناسبةه واكل فيها وشرب اكثر من مائة مزارع تحت
اشجار البلوط . حديثهم لا يتلو قط من ذكر العروس التي هى
« بلا شك ليست جميلة كل الجمال ولكنها السحر بعينه » . لقد
بدت بالجميع في ذلك اليوم دميمة بل وقبيحة الى أقصى حدود
القبح .

لم تكن على ما عهدناه فيها من ملامح ... لقد كانت شخصا
آخر ...

هكذا قال القوم وكل ما رواه منها هو الاختلاف في مظهرها
الذى تمودوه ، وقد نسبوا ذلك الى ملابس الزفاف البيضاء والى
حرارة الجو . لقد غاب عنهم وجهها الحقيقي .

فرا مساء يوم الزفاف الذى اختلطت فيه العادات الرفيعة
بالتقاليد الحضرية أقبل الناس جماعات تزهو وسطها ثياب الفتيات
بالوانها الفاقعة .

اضطرت السيارة التي استقلها العروسان الى الإبطاء من سرعتها
وسارت وسط الهنافات والتهليلات . انطلقا بعد ذلك على الطريق
المكسو بزهور اشجار السنط وتقدما العربات المتمايلة التي يقودها
اجلاف سكارى . تذكرت تيريز الليلة التي تلت ذلك اليوم فتمتمت
قائلة : « لقد كان امرا بشعا .. » ثم استدركت : « لا .. ليس
بشعا الى هذا الحد .. » . تساءلت هل تأملت كثيرا في أثناء تلك
الرحلة التي قاما بها في منطقة البحيرات الإيطالية ؟ . كلا .. كلا ..
لقد تسلمت بلعبة ابتدعتها ، هى عدم البوح باحاساساتها وكتمان
مشاعرها . ربما كان من السهل تمثيل الأحاسيس مع الخطيب
وخداعه بها . ولكن مع الزوج كان الأمر يختلف ! . ان الكلمات
الكاذبة يستطيع كل انسان ان يقولها ، ولكن اكاذيب الجسد تتطلب
علما ودراية . لن يستطيع انسان ان يخادع في اظهار الرغبة والسرور
والارهاق الهنء ويتقن الخداع . لقد عرفت تيريز كيف تخضع
جسدها لهذا الخداع وتدوقت كل ما في هذا التظاهر والتمثيل من
لذة مريرة . عالم مجهول تتصادم فيه الاحساسات ورجل يدفعها
الى الدخول فيه دفعا . مخيلتها توحى لها بانها قد تجد هى الأخرى
في هذا العالم بصيصا من الهناء . ولكن أى هناء هذا ..؟ أنه يشبه

المنظر الطبيعي الذي تاهت معالمه تحت مياه المطر المنهمر وقدوقف المشاهد أمامه يتأمله ويتخيل ما يكون عليه في ضوء الشمس الساطعة .. هكذا اكتشفت تميز اللذة .

برنار ! .. هذا الصبي ذو النظرة القاحلة ! .. انه لا يكف عن الشكوى من اختلاف أرقام اللوحات عن الأرقام الواردة في دليل المتحف ! .. انه يبدي السرور كله لتمكسه من رؤية كل ما يجب رؤيته في أقل وقت مستطاع ! .. يا له من غر يسول خداعه وتضليله ! انه حبيس سعادته تلك الخزائير الصغيرة اللطيفة التي يعجب المرء منظرها من خلف السياج وهي تخوض سعيدة هائلة وسط مغلها . وقد كنت أنا هذا الملف ! .. تذكرت تميز امارات العجلة والانشغال والجد التي كانت تبدو عليه ، ثم تذكرت كيف كان متزنا خبيرا . سألته يوما في حيرة :

— هل تظن حقا ان ذلك عمل حكيم ؟ .

فضحك وطمانها . من اين له هذا العلم بتصنيف كل مايتعلق بشئون الجسد ؟ من اين جاءته تلك الخبرة في التمييز بين أساليب الرجل الشريف في الحب وبين أساليب الرجل المريض ؟ لم يكن في هذه الامور يعرف التردد قط . لقد حدث في إحدى الامسيات وهما في باريس حيث توقفا لفترة في طريق العودة ان اخرج محتجا نائرا من أحد الملاهي الليلية وقد نال منه الاشمزازا من المناظر التي تعرض فيه . قال :

— أهذا كل ما يعرض على الاجانب هنا ؟ .. يا للعار ! .. انهم يحكمون علينا بما يرونه من هذه المناظر الفاضحة ! .. !

وقد شعرت تميز بالاعجاب بغمسها لان هذا الرجل العف الفيور هو الذي سوف يقهرها بعد مضي ساعة او بعض ساعة على معاناة ما برع في اختراعه من اساليب الظلام .

— مسكين برنار .. انه ليس أسوأ من غيره ! .. ! ولكن الشهوة تحيل الشخص الذي يقربنا الى مسخ ليس بينه وبين الانسان شبه وما من شيء اقدر على التفريق بيننا وبين شريكنا في المتعة من الشهوة التي تظهر عليه . لظالما رأيت برنار وهو يقفوض في اللذة بينما كنت أنا كجثة هامدة اظاهر بالموت كما لو كنت أخشى

ان يحاول هذا الرجل المجنون المصروع ان يخنقني اذا ما بدت منى حركة . وكثيرا ما كان يحدث وهو على حافة نشوته القسوى ان يكتشف فجأة وحدته وانفراده فتنتقطع في الحال جهوده المتشعبة الكثيرة . وعندما بكر الى عائدا يجدني كما لو كنت امرأة لفظها البحر من جوفه فظلت على شاطئه غاسقة على أسنانها باردة .

رسالة واحدة من آن . كم تكره هذه الصغيرة الكتابة . ما من منظر في هذه الرسالة الا واعجت به تميز . قلما تعرب الرسائل عن عواطفنا على حقيقتها ، قلما تصورها بنفس الاحساس الذي تحدثه في نفوسنا والذي يحمل على قراءتها في سرور . تشكو آن من انها لم تعد تستطيع الذهاب الى فلميچا مشد ان سكنها ابن ازيفيدو . لقد نظرت على البعد الى مقعده الطويل الممدد وسط نباتات السرخس . ان منظر المصدورين يملؤها رعبا .

كثيرا ما قرأت تميز هذا الخطاب من غير ان تتوقع قدوم غيره لذلك كانت دهشتها عظيمة ، في صبيحة اليوم التالي لتلك الامسية التي قطعها برنار فجأة في المئى الليلي ، عندما تعرفت على خط ان فوق خطابات ثلاثة جاء بها البريد . اشارات عديدة الى « شيايك البريد » انتهت بهذه الرسائل الى باريس . ذلك انهما تخطيا متعجلين مراحل عديدة من الرحلة لسرعة الوصول « الى وكرها » كما يقول برنار . لكنهما في الحقيقة تمجلا العودة لضيقهما بالبقاء معا . لقد كان برنار . يدوى مللا لبعده عن بنادقه وعن كلابه وعن الحانة التي يتميز فيها شراب البيسكون الرمانى بمذاقه لا يلقاه في اى مكان آخر من وجود هذه المرأة الى جواره باردة ساخرة لا تفصح قط عن سعادتها ولا تحب التحدث فيما يهمه من الامور . اما تميز فكانت تتعجل العودة الى سانت كلير لانها كانت كالمفنية التي ملت البقاء في السجن المؤقت وتاقت نفسها الى رؤية الجزيرة المنعزلة التي قدر لها ان تقضى فيها ما تبقى لها من ايام الحياة . تفحصت تميز في عنابة التواريخ المطبوعة على اغلفة الرسائل الثلاث ، وما كادت تضع اقدامها حتى اطلق برنار زفرة مصحوبة ببيض كلمات لم تفهم لها معنى . لقد كانت النافذة

مفتوحة وسيارات الاوتوبيس في ذلك المتروك تنتقل سريعة محدثة
ضجيجا بصم الاذان . توقف عن حلاقة ذقنه ليقرأ خطابا جاءه من
امه . مازالت تيريز تذكر حتى الان صدرته المصنوعة من النسيج
الرخو وذراعيه العاريتين المنتفختين بالعضلات وجلد جسمه
الشاحب . تذكرت فجأة اللون الاحمر القاني المنتشر على عنقه
وفي وجهه . لقد كانت الحرارة في صبيحة ذلك اليوم من ايام يولية
تفوح منها رائحة الكبريت ، وكان ضوء الشمس الملىء بالبخان
نارج الشرفة يضيء على واجهات المباني الجامدة مزيدا من القدرة
والوسخ . اقترب من تيريز وهو يصرخ :

— اما هذا فشيء فظيع ... تصوري ... صدقتك آن ...
انها تتعدى الحدود ... من يقول ان اختي الصغيرة ...
واذ نظرت اليه تيريز مستهمة قال :

— هل تصدقين انها مفرمة بابن ازيفيدو ؟ نعم انها تحبه ...
هذا المصدر الذي من اجله اجريت التوسيمات في فلمبجا ...
نعم ، نعم ... ان الامر يبدو جد خطير ... تقول انها تنتظر الى
ان تبلغ سن الرشد ... خطاب امي يقول انها جنت جنونا تاما .
ليت عائلة ديبلهم لا تعلم شيئا من ذلك ، والا فقد يحجم انهم
الشباب عن التقدم بطلبه ... هل وصلتك رسائل منها ؟ ستعلم
شيئا عن ذلك ... هيا اسرعي الي فضاها كلها ...

— بل اريد ان اترافها بترتيبها . على انى لن استطيع اطلاع
عليها .

من هذا الرد القاطع عرف برنار في زوجته طبعها وطبيعتها ،
انها تسيب الاضطراب في كل شيء . انما المهم في نظره هو ان تعيد
الفتاة الصغيرة الى رشدها وعقلها .

— ان الاسرة تعتمد عليك في ذلك ... ان لك سلطانا عليها ...
حقا ، حقا ... انهم ينتظرون عودتك على احر من الجمر ، ففيها
تيجانهم جميعا ...

افذقتنا على ان تقوم تيريز لتتردى ملابسها بينما يذهب برنار

لارسال برقية ولحجز مقعدين لهما في قطار الجنوب السريع . قال
لها ان في استطاعتها ان تبدأ في اعداد الحقايب للسفر ثم سألها
— ما الذى تنتظرينه لتقرئى خطابات الصغيرة ؟
— ان تفادى هذا المكان .

انقضى وقت طويل بعد ان افاق برنار باب العسرفة . تيريز
مستقلية في رقدتها تدخن السجائر وتنظر ساهمة الى الحروف
الذهبية الكبيرة التى علاها التراب على حائط الشرفة المواجهة .
قضت الغلاف الاول . لا ، لا ... لم تكن تلك البلهاء الصغيرة
العزيرة ، لا يمكن ان تكون تلك الفتاة البريئة التى تلقت في الدين
تربية ذهنية محدودة ، هى التى كتبت هذه الكلمات النارية ...
لا يمكن ان ينبع من ذلك القلب الجاف — فقد كان قلب آن جافا
ولعل تيريز تعرف ذلك — هذا اللحن الحلو الذى يشبه نسييد
الاناشيد ، هذه الالهة الطويلة السعيدة المنبعثة من المرأة التى
اكتملت لذتها ، من الجسم الذى يدوب سعادة لدى المسة الاولى .
— ... عندما قابلته لم يكن في استطاعتى ان اتصور انه هو .
لقد كان يلهو بالجرى مع الكلب وهو يطلق الصرخات . كيف كان
بوسمى ان اظنه هذا المريض المصاب اصابة جسيمة ... انه ليس
مريضا وانما هى احتياطات يتخذونها بسبب الكوارث التى حلت
بعائلته . هو ليس بالهزيل وانما هو نحيف فقط ... ثم هو معود
على التدليل والملاطفة ... انى تفيرت كثيرا ولن تعرفينى الآن .
تصورى ... انى اذهب بنفسى لاحضار السترة له عندما تهبط
الحرارة ويبرد الجو ..

لو دخل عليها برنار في تلك اللحظة لراى ان هذه المرأة الجالسة
على السرير ليست هى زوجته وانما هى انسان لا يعرفه ، مخلوقة
قريبة عنه لا اسم لها . اقلت بسيجارتها ومزقت النظرف الثانى ،

« ... سأندرع بالصبر طوال المدة اللازمة ... ما من مقاومة
تخيفنى .. وان حبيبى لا يدري شيئا من ذلك .. انهم يحجزوننى

في سانت كبير ولكن ارجاؤز ليست بعيدة . لا يصعب علينا اللقاء جان وانا . هل تذكرين برج الحمام البري ؟ لقد اخترت انت يا عزيزتي من قبل المكان الذي قدر لي ان اعرف فيه اللذة ... لا ... لا تمنني بنا الفنون ، اننا لا نرتكب اثما ... هو رفيق كل الرقة . قلما تصورين شابا من هذا الطراز ... لقد درس طويلا وقرأ كثيرا مثلك انت . ولكن المعرفة الواسعة لا تضايقتني اذا توفرت لشاب ، لهذا لم افكر ابدا في مداعبته بالتهكم عليه من اجل ذلك . كم اتمنى ان اكون على مثل ما انت عليه من علم ودراية . وقد اضحي بكل شيء لآكون مثلك . عزيزتي ، ما هي تلك السعادة التي توفرت لك انت ولم اعرفها انا بعد والتي تجعل من مجرد القرب شيئا لذيذا كل هذه اللذة ؟ عندما اكون الي جواره ، في برج الحمام الذي كنت تصرين على ان ناتي اليه بفدائنا ، اشعر بالسعادة تملاني كأنها شيء استطيع لسه . اقول لنفسى ان هناك على الرغم من ذلك هناك بعد حدودا من هذا الهناء . وبعد ان يفارقتني جان ، وقد شحب وجهه ، تطل ذكرى مداعباتنا مائلة في قلبي ، واعمش في انتظار ما سوف ياتي به القدر . اني اصم اذني عن التضرعات والسباب التي يواجهنى بيها اهلي ، اولئك القوم الذين لا يفهمون شيئا ... الذين لم يتذوقوا حلوة ذلك ... عزيزتي، اغفرتي لي . اني احثلك عن هذه السعادة كما لو كنت تجهلينها انت ايضا . على اني لست سوى مبتدئة بالنسبة اليك . لذلك اراني على يقين على انك ستقفين الي جانبنا ضد اولئك الذين يريدون بنا شرًا ...

قضت تيريز الغلاف الثالث . لم تجد غير كلمات قليلة كتبت على عجل :

— احضري يا عزيزتي ، لقد فرقوا بيننا . انهم يراقبونني عن كئيب مراقبة شديدة . يظنون انك ستنضمين الي جانبهم . قلت لهم اني اقبل حكمتك . ساشرح لك كل شيء عند قدومك . انه ليس مريضا . انا سعيدة وانالم . انا سعيدة لانني انالم من اجله . اني احب هذا الالم وارى فيه دلالة على الحب الذي نكنه لي ...

لم تذهب تيريز في القراءة الي بعد من ذلك . لاحظت وهي

تعبد الورقات الي اغلفتها . ان بداخل احداها صورة فوتوغرافية لم تتنبه الي وجودها من قبل . اقتربت من النافذة وتطلعت بنظرها الي هذا الوجه . شاب اكتسى راسه بشعره كثيف فبدا كبير الحجم . عرفت تيريز في الصورة المكان الذي التقطت فيه . انه ذلك التل الذي طالما وقف عليه جان ازيفيدو منتصبا كأنه تمثال داود وعلى الخلف ارض جرداء ترعى فيها بعض النعاج . انه يحمل سترته وفي ذراعه وقد كشف قميصه قليلا عن صدره ليتلقى كما تقول آن — « اخر الملمات المباحة » . رفعت تيريز عينها ونظرت مشدوها الي وجهها في المرآة . شعرت بحاجة الي بعض الجهد لتفك ما بين اسنانها المنقبضة ولتبتلع ريقها . دلكت صديغها وجبهتها بماء الكولونيا . قالت تخاطب نفسها :

— انها تذوق هذه السعادة ...! كيف بي انا ...؟ انا ... لا اذوقها انا ايضا ...؟

القت بالصورة على المنضدة فاذا بدبوس يلعب بالقرب منها .
— لقد فعلت انا هذا ... انا التي فعلت هذا ...

كررت تيريز هذه الكلمات وهي في مقعدها داخل هذا القطار المترنح وقد اندفع مسرعا فوق منحدر من القضبان . ثم قالت لنفسها « منذ سنتين مضتا ، في غرفة ذلك الفندق ، امسكت بالديسوا وثقيت به صورة هذا الشاب في موضع القلب تماما . لم اتقبه بعنف ، كلا ، ولكن في هدوء كما لو كان ذلك عملا عاديا . ثم ذهبت الي دورة المياه حيث القيت بالصورة وبها هذا الثقب وشددت فوقها سيل الماء الطارد .

عندما عاد برنار رآها هادئة كأنها شخص اطال التفكير وقرن لنفسه السلوك الذي يسلكه . عاب عليها كثرة التدخين . انها بذلك تسمم نفسها . ان رأبها هو الا تعلق اهمية قصوى على مثل تلك النزوات من فتاة صغرة . تمهدت بان تنير لها الامور ... وحب برنار بالكلمات المطمئنة التي قالتها له تيريز . كان سروره بالغا لشعوره بوجود تذاكر العودة في جيبه كما كان ارتياحه ظاهرا لان اهله قد بدأوا يلتبسون العون من زوجته . قال انه مصمم ،

يا كان الثمن ، على تناول آخر غداء لهما في هذه الرحلة في احد مطاعم الغابة . ظل يثرثر وهما في السيارة التي اكترها لتنقلهما الى المطعم . تكلم عن مشروعاته في افتتاح موسم الصيد . قال انه يتوق الى تجربة ذلك الكلب الذي يدربه باليون من اجله وان امه كتبت له تقول ان فرسه لم تعد تخرج بعد ان كوى مكان اللدء فيها بالنار ... عدد الاكلين مازال قليلا في ذلك المطعم الذي بهرهما بكثرة ما فيه من خدم . ظلت تيريز تذكر تلك الراحة التي عيقت المكان ، رائحة زهور « العطر شاه » نخالها رائحة الطبخ . لم يكن برنار قد ذاق من قبل نبيذ الراين ، فاستاء لان القوم لا يقدمونه كل يوم . حجب برنار بجسمه الضخم عن تيريز رؤية قاعة المطعم ولكنها من خلف زجاج النوافذ شاهدت السيارات تمرق وتقف فلا تسمع لها صوتا . انها تعرف ان ذلك الشيء النابض المتحرك بالقرب من اذن برنار هو عضلة الصدفى . ما ان شرب برنار الجرعات الاولى حتى التهب وجهه بحمرة . ياله من شاب ريفى قوى جميل لا عيب فيه الا افتقاره طوال هذه الاسابيع الى الفضاء الواسع ينفق فيه ما تجتمع في جسمه من طاقات يومية ولدها الطعام والشراب . انها لا تمقته ولكن ما اشد رغبتها في ان تبقى بمفردها لتفكر فيما ينتابها من ألم ، ولتتحسس موقع هذا الألم من نفسها ! ان كل ما تتمناه هو الا يكون معها في ذلك المكان ، والا تضطر الى تناول الاكل المفروض وافعال الابتسامة المتكلفة ، والا تشغل بالها بضرورة رسم الملامح الكاذبة على وجهها واظهار النظرة الخافتة في عينيها ، وان تستطيع تركيز ذهنها خرا طليقا على هذا اليأس الخفى الذى يملأ قلبها . تذكرت آن فقالت لنفسها : انها مخلوقة تنطلق بعيدا عن الجزيرة القاحلة التى كنت تمتددين انها تنوف تعيش فيها الى جوارك حتى النهاية ، انها تجتاز الهوائية التى تفصل بينك وبين الآخرين وتنضم الى هؤلاء الآخرين . انها تنتقل من هذا الكوكب الى كوكب آخر ... لا ... هل انتقل قط كائن حى من كوكب آخر ؟ لقد انتسبت آن دائما الى زمرة البسطاء من بنى البشر . لم تكن الا شيحا طالما نظرت تيريز اليها في الايام الخوالى ، ايام اجازتهما المنعزلة ، وهى تتكى برأسها على ركبتيها نائمة . لا . انها لم تعرف ابدا آن دى لاتراف الحقيقة ، لم تعرف

تلك التى تسعى اليوم الى لقاء جان ازيفيدو في برج الحمام المهجون بين سانت كلير وارجلوز .

قال لها برنار :

— ماذا بك ؟ الا تأكلين ؟ ... يجب الا تتركى لهم شيئا من الطعام ، انها خسارة نظرا لما يتقاضونه فيه من ائمان غالية ... هل هى حرارة الجو ؟ ارجو الا يصيبك الاغماء ، ما لم يكن ذلك من اثر الوحام ... الذى بدا ...

ابتسمت تيريز . ابتسم فيها وحده . قالت انها تفكر في تلك المغامرة التى اندفعت فيها آن . كانت بها حاجة لان تتكلم عن آن . وبينما برنار يعلن اطمئنانه التام مادامت قد تكلفت هى بالامر سألته المرأة الشاببة عن السبب الذى من اجله يبدى اهله معارضتهم في هذا الزواج . ظن برنار انها انما تهزأ منه ورجاها الا تسترسل في آرائها المتناقضة ، قال :

— اولاً انت تعلمين جيدا ان هؤلاء القوم هم من اليهود . لقد عرفت امى الجد ازيفيدو الذى رفض ان يتلقى سر العماد ... اعترضت تيريز قائلة ان اعرق الاسماء في مدينة بوردو كلها هى اسماء اولئك اليهود القادمين اصلا من البرتغال . ثم اضافت : — لقد كان آل ازيفيدو في اعلى مراتب المجتمع في الوقت الذى كان فيه اجدادنا ، هؤلاء الرعاة الجوساء ، يرتعدون من الحمى على شواطئ مستنقعاتهم .

— يا تيريز ، لا تكابرى لمجرد الرغبة في المناقشة . ان اليهود كلهم سواء ... ثم ان هذه العائلة ليس من افرادها الا كل مريض . كلهم مصدورين حتى نخاع عظامهم . الكل يعلم ذلك .

اشعلت تيريز سيجارة بحركة طالما اشماز لها برنار وقالت : — هل لك ان تذكر لى مم مات جدك وابو جدك لآلم تمنع انت؟ عند زواجك منى ، بالتحرى عن المرض الذى ماتت به امى ... آهل؟ تعتقد اننا لو بحثنا بين اسلافنا لما عثرنا على ما يكفى من مرضى السلس والزهرى لتسميم العالم بأسره ؟

— انك تفالين كثيرا يا تيريز . اسمحى لى ان اقول ، ولو نظى مسييل المزاج والتفاخر : ليس لك ان تسمى امجاد العائلة !

انتفخ صدر برنار ضيقا وهو يريد ان يبدو متعاليا امام تيريز من غير ان يشير لديها السخرية . ولكنها عادت تقول في اصرار :

— ان عائلتنا تضحكني بما تبديه من حذر سخيف . هذا الرعب من العاهات الظاهرة لا يعادله الا التعامى عن عاهات اخرى اكثر من هذه عددا ولكنها خفية . . . انت نفسك ، انك تستعمل عبارة الامراض السرية . . . اليس كذلك ؟ . . . هلا اعترفت بان اخطر الامراض على الجنس هي بطبيعة تعريفها ادواء سرية . . . ؟ هذه حقيقة لا تشبه اليها عائلتنا ابدا بينما هي تتفاهم جيدا فيما بينها على دفن كل ما علق بها من ادران واقدار . لولا الخدم لما عرف على شيء من ذلك . هناك لحسن الحظ الخدم . . . !

— ان ارد عليك . عندما تندفعين هكذا ، يكون من الافضل الانتظار الى ان تنتهى الثورة . ان ثوراتك معي لا تحدث الا ضرا قليلا . فانا اعرف انك تلهين . اما هناك في المنزل فالامر على خلاف ذلك . انت تعرفين ان النتائج ان تكون طيبة . نحن لا نتهاون في اى امر يتعلق بالعائلة . . .

العائلة . . . ! تركت تيريز سيجارتها تنطفئ وقد تسممت نظرتها : انها ترى في مخيلتها هذا القفص المحاط بسياج لا عدد له من الاحياء ، هذا القفص المبطن بالاذان والعيون والذي قضى عليها ان تعيش في داخله جامدة لا تتحرك وقد جلست القرفساء واضعة ذقنها بين ركبتيها ضامة ساقيها بذرعايها في انتظار الموت البطيء . قال لها برنار :

— هيا يا تيريز ، بددى هذا العبوس . لو نظرت لوجهك الآن ابتسمت واعادت الى وجهها قناعه الاول وقالت :

— اننى كنت اهبو . . . يالك من ساذج يا عزيزى . . . ولكنها حينما جلست معه في السيارة لتعود بهما الى الفندق واقترب منها دفعته بيدها وابعدته عنها .

في تلك الليلة الاخيرة التى سبقت عودتهما الى البلدة ذهبا الى الفراش في الساعة التاسعة . تناولت تيريز حبة من دواء منوم ولكنها انتظرت النوم طويلا فلم يات اليها . في لحظة ما غلبها النعاس واذا ببرنار يتقلب في نومه وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة . شعرت بهذا الجسم الكبير الملهب يلاصق جسمها فابعدته عنها

ارادت الا تعانى بعد ذلك من مجاورة هذه النار لها فتمدت على الحافة البعيدة للفراش . بعد بضعة دقائق تدرج الجسم الكبير مرة اخرى نحوها كما لو كان الجسد فيه ما يزال حيا برغم غياب العقل منه ، وكما لو كان يبحث حتى في نومه عن الفريسة التى اعتاد افتراسها . للمرة الثانية مدت يدها في عنف شديد ومن غير ان تغلق في ابقائه ابعدته عنها . آه . . . ! لو امكنها ان تبعد عنها بعدا حقيقيا والى الابد . . . ! لو امكنها ان تلقى به خارج الفراش ، ان تقذف به الى الظلمات . . . !

ابواق السيارات في تلك الليلة من ليالى باريس تتجاوب فيما بينها كما تتجاوب في ارجلوز الكلاب والديكة عندما يزهق القمر ما من نسمة طرية تبعث من الطريق . اضاءت تيريز مصباحا وانكات على الوسادة تنظر الى هذا الرجل الممدد بلا حراك الى جوارها ، هذا الرجل ذى السبعة والعشرين عاما وقد ازاح عن جسمه القطاء . ان انفاسه لا تكاد تسمع وقد انتشر شعره الكثيف يغطي جبينه الذى مازال محتفظا بظهره ويكسو صدغه الذى خلا من التجاعيد ها هو ذا نائم كأنه آدم وقد تعرى عن ثيابه وتجرد من سلاحه ، نوم عميق كأنه النوم الأبدي . الفت المرأة غطأها فوق هذا الجسم الممدد الى جوارها ونهضت تبحث عن الرسائل التى لم تتم قراءتها ثم اقتربت من المصباح :

— . . . لو قال لى ان اتبعه لتركته كل شيء من غير ان التفت براسى . اننا نقف على الحافة . . الحافة الاخيرة للذة القسوى . . . ولكن هذا التوقف بارادته هو لا بمقاومتي انا . . . ولعل الاصحاح اقول انه هو المقاوم وانا الراغبة فى الوصول الى تلك النهايات المجهولة التى طالما ذكرها لي قائلا ان مجرد الاقتراب منها يسمى على اللذات جميعا وانه يجب علينا ان نظل بمنأى عنها . انه فخون باستطاعته التوقف عند هذه المنحدرات التى يقول عنها ، ان الآخرين اذا ما سلكوها انساقوا فيها معدومي المقاومة . . .

فتحت تيريز النافذة ثم مزقت الرسائل الى قطع دقيقة وهى متكئة فوق الهاوية الحجرية التى لم يكن يعكس سكونها في تلك

الساعة المبكرة من ساعات الفجر قمر عربية متناقلة . قطع الورق الممزقة تلف وتدور في الهواء ثم تنهوى على شرفات الادوار السفلى . ما هذه الرائحة النباتية التي استنشقتها المرأة الشابية؟ من اى الحقول جاءت لتستقر على تلك الصحراء الاسفلتية ؟ مرت بخاظرها صورة لجسدها وقد تناثرت اجزائه فوق ارض الشارع وتجمعت حوله اخلاط من رجال الشرطة والعابرين المتسكمين . . ان لتبريز من الخيال ما يحول بينها وبين الانحار . انها فى حقيقتها لا تمنى ان تموت . فهناك عمل هام ينتظرها . . عمل ليس محوره الانتقام ، لا ، ولا الحقد . وانما محوره تلك الصغرة الحميماء القابعة هناك فى سانت كلير متوهمة ان السعادة يمكن الوصول اليها . يجب ان تعلم هذه الصغرة ما تعرفه تبريز من ان السعادة لا وجود لها . واذا لم يكن بينهما شيء متشابه فلتشتركا على الاقل فى الملل وفى اسكارا الاعتراف بوجود المهام العليا والواجبات السامية ، وفى استحالة توقع اى شيء غير الاعتيادات اليومية الحقيرة . فلتشتركا فى العزلة التى لا يخالفها عزاء . انتشر ضوء الفجر على الاسطح فأضاءها وعادت تبريز الى سريرها بجوار الرجل الممدد بلا حراك . . وما ان القت بجسدها قريبا منه حتى شعرت به مرة اخرى يقرب منها .

استيقظت صافية الذهن موفورة العقل والتفكير . ما الذى ذهب بها الى تلك الأبعاد السحيقة ؟ ان امرتها تستنجد بها ولسوف تسلك السلوك الذى يرضى امرتها . فهى بذلك لن تحيد عن الطريق المستقيم . اندفعت تبريز تبدي موافقتها على كل ما يقوله برنار حول ضرورة زواج آن من ديجلهم وان فئسل هذا الزواج يعنى الكارثة الكبرى . ان اسرة ديجلهم بعيدة عن مستواهم الاجتماعى . حقا ، ان جدتها الأعلى كان راعيا من الرعاة . ولكنها اليوم تمتلك اجمل ما فى المنطقة من اشجار الصنوبر ، هنا بينما آن . مهما قبل عنها - لا تعثر من الاثرياء . ليس لها ان تنتظر من ميراث ابنها غير الكروم القابعة فى قاع الوادى بالقرب من بلدة لانجون حيث تسمرها المياه ستة بعد اخرى . . يجب ايا كان الثمن الا يغسل زواج آن من ديجلهم . . شعرت تبريز بتقزز شديد

من رائحة الشيكولاته التى انتشرت فى أنحاء القرية . . هذا الغثبان الخفيف يؤيد العلامات الاخرى ، انها حامل ، قال برنار :
- من الخير ان يأتى ذلك فورا حتى لا تفكر فى امره بعد الآن .
ثم تطلع فى اجلال الى تلك المرأة التى تحمل بين احشائها الملك الوحيد عددا لا يحصى من اشجار الصنوبر .

- ٥ -

سانت كلير . . بعد لحظة ستكون فى سانت كلير . . أخذت تبريز عيس فى ذهنها الطريق الطويل الذى قطعتة افكارها . . هل فى استطاعتها ان تحمل برنار على الوصول معها الى تلك النهاية ؟ انها لا تكاد تأمل ان تراه راعيا فى السير بخطى وثيدة على هذا الطريق الوعر . ولكن ما زال باقيا من الامر جوهرة :
- عندما اصل به الى هذا الضيق الذى انا فيه الآن ، سيبقى على ان استكشف كل شيء ، فانى لم اصل الى القرار بعد . .

انحنت تبريز على الطلسم الكامن فى نفسها وأخذت تحاور تلك الزوجة الشابية التى طالما اعجب الجميع بحكمتها عندما قدمت من المدينة لتستقر فى سانت كلير . . استعادت فى ذهنها اسابيعها الاولى فى منزل أهل زوجها بعد ذلك الرطب المغم . . ان نوافذ المظلة على الميدان الكبير كانت مغلقة دائما ، ولكن الجهة اليسرى كانت تطل من خلال السياج على الحديقة الملهية بازهار الهليوتروب والجيرانيوم والبيتونيا . كان هناك لاتراف العجوز وزوجته محصنين داخيل الصالون المظلم الضفير فى الدور الأرضى وكانت هناك آن هائمة وسط تلك الحديقة ، ومحظور عليها مفادرتها ، وكانت تبريز تنتقل بين هؤلاء وهؤلاء تحمل اسرار البعض وتتآمر مع البعض الآخر . كانت تقول للمجوز وزوجته : « فكا عنها الحصار قليلا . اسمحا لها بالسفر فى رحلة قبل ان تتخذ اى قرار . انا كفيفة بان احصل منها على طاعتها لكما فى ذلك . سأسعى الى ذلك فى غيبتكما » . .

كيف يتم ذلك ؟ ان لاتراف وزوجته يريان ان « آن » سوف تسارع الى التعرف على ابن ارفيدو .. كانت تيريز تعترض قائلة :
- يا امي ، انك لن تصلى الى شيء عن طريق الهجوم المباشر .

كانت مدام دي لاتراف ترى ان أخبار ذلك الحدث الجلل لم تتسرب الى الخارج بعد وهي تحمد الله على ذلك .. ليس غير الانسة مونود عاملة البريد من يعلم بالأمر فقد ضبطت رسائل عديدة قادمة من آن ..

- ولكن هذه الشابة تحافظ على الاسرار كانها القبر . وهي على كل حال فى يدنا ولن نتحدث بشيء .

كثيرا ما كان هكتور دى لاتراف يقول : « علينا الا نجعلها تمعذب الا فى اقل قدر ممكن ..

ولكن ذلك الرجل الذى طالما استجاب الى نزوات آن كلها لم يكن ليستطيع الا ان يوافق على كل ما تقوله زوجته فكان يقول :

- لا بد لآكل البيض من ان يكسره .. وسيأتى يوم تشخرنا فيه على ما فعلنا ..
فكانت تيريز ترد قائلة :

- ولكن .. الى ان يأتى هذا اليوم ليس من الممكن ان تصاب بالمرض ؟ ..

عندئذ كان الزوجان يلوذان بالصمت وعيناهما سارحتان لاشك أنهما كانا يتبعان فى مخيلتهما ابنتهما الذالقة تسير فى وهج الشمس نافرة عن تناول الطعام وهي تطأ بقدميها الزهور التى تراها وتتسلل على طول السياج فى خطوات الظبي الحبيس تبحث عن مخرج لتنتقل منه .. كانت مدام دي لاتراف تهز رأسها وتقول :

- ليس فى استطاعتى ان آكل الحساء بدلا منها ، اليس كذلك ؟
أنها تملأ بطنها بالفاكهة فى الحديقة لتترك اثناء الطعام اطباقها فارغة ..

بينما هكتور دى لاتراف يقول :

- سوف تلومنا فيما بعد اذا ما وافقتنا على هذا الزواج ..

لا ، يجب الا نوافق ولو من اجل الاطفال البؤساء الذين ستأتى بهم الى هذا العالم ..

كانت زوجته لا تخفى حنقها عليه لما يبدو من محاولة انتحال الاعذار لابنته وكانت تقول :

- لحسن الحظ ان آل ديجهليم لم يأتوا بعدوانهم متمسكون بهذا الزواج استمساكم بحبة أعينهم ..

كان الزوجان ينتظران الى ان تغادر تيريز الحجرة ليسائل أحدهما الآخر :

- ولكن ، بماذا حشوا رأسها فى الدير ؟ ان عينها لم تقع هنا

الا اعلى كل قدوة حميدة . لقد راقبنا قراءاتها .. ان تيريز تقول ليس كروايات الحب التى تصدرفى مجموعة الكتب الجيدة للاطاحة بمقول الفتيات .. ولكن كلامها كله متناقض . على ان آن والله الحمد لا تميل الى القراءة ولم أبد لها قط اية ملاحظة فى هذا الشأن ..
فهى من هذه الناحية ربة اسرة كاملة . على انه لو استطلعنا ان نتيج لها فرصة لتغيير الهواء .. هل تذكر كم افادتنا الرحلة الى سالى بعد اصابها بمرض الحصبة التى صاحبها الاحتقان الرئوى ؟ سنذهب الى حيث تشاء هى .. ليس لدى ما اقوله غير ذلك ..
هذه الصبية جذيرة بكل عطف فى الحقيقة ..

كان مسيو دى لاتراف يتنهسد فى غمفمة ويقول ردا على زوجته :

- او ..! رحلة معنا .. لا شيء .. لا شيء ..

بينما الزوجة التى ثقل سمعها تساله :

- ماذا تقول ؟ ..

تذكر الرجل العجوز فجأة وسط هذا الشراء الذى استقر فيه أين هى رحلة الفرام التى قام بها هو ؟ أين هى ساعات الهناء فى شبابه الواله ؟

فى الحديقة اسرعت تيريز الى الصبية التى تمهل على جسمها ثوب العمام الماضى . سالتها آن عند اقترابها منها :



— ما وراءك؟ ..

هذا الرماد الذي يكسو طرقات الحديقة ، وهذه الحقول الجافة المفتحة ، وهذه الرائحة المنبعثة من ازهار الجيرانيوم المحترقة . وهذه الفتاة التي تزيد على النباتات ذبولا في ظهيرة شهر أغسطس الحار ، كل هذا وجدته تيريز في زوايا قلبها .. وكثيرا ما حدث ان الجأتهما نوبات المطر المفاجيء الى الاحتماء داخل الصوبة حيث كانت حبات البرد المتساقط ترتطم بالزجاج فتنبعث منه اصوات عالية .

— ما الذي يمنحك من السفر ما دمت لا تترينه؟ ..

— اني لا اراه حقا ولكنى اعرف انه يتنفس على بعد عشرة كيلو مترات من هذا المكان . وعندما تهب الريح من الشرق اعلم انه يسمع دقات الاجراس في الوقت الذي اسمعها فيه انا . هل يتساوى عندك ان يكون برنار في ارجلوز او في باريس؟ اني لا ارى جان ولكنى اعلم انه ليس بعيدا عنى . في يوم الأحد في الكنيسة لا احاول ان التفت براسي لأن المجراب هو وحده الذي يرى من حيث نحن جالسون وهناك عمود يفصل ما بيننا وبين الحاضرين ولكن عند مفادرة المكان ..

— ألم يكن هناك يوم الأحد الماضي؟ ..

كانت تيريز تعلم انه لم يكن هناك ، وكانت تعلم ان آن وقد دفعتهما امها دفعا جالت بنظرها وسط الجمع تبحث سدى عن الوجه الحبيب الغائب .

— ربما كان مريضا .. أنهم يحجزون عنى رسائله .. لا استطيع ان اعلم شيئا .

— انه لامر عجيب حقا الا يجد وسيلة لا يصل كلمة منه اليك

— لو شئت أنت يا تيريز .. نعم ، اني اعلم ان موقفك دقيق .

— وافقى على هذا السفر وفي اثناء غيابك ربما .. .

— لا استطيع البعد عنه .

— ايا كان الامر فهو سوف يذهب يا عزيزتى ، بعد بضعة

اسباع سيرحل عن ارجلوز .

— آه ، اسكتي . انها فكرة لا اطبقها . ما من كلمة منه تماوتنى على الحياة؟ اني لا اكد موت جزءا . يلزمنى في كل وقت ان اذكر كلماته التي متحنتنى اقصى قدر من السعادة .. ولكن من فرط ما كرر على كلماته لا اكاد اصدق انه قالها لى فعلا .. اليك كلمته هذه في آخر لقاء لنا مازلت اسمعه يقول:

— ليس في حياتي شخص آخر غيرك ..

— نعم هذا ما قاله لى او لعل كلماته كانت « أنت ائمن ما لى قى حياتي » ليس فى استطاعتى ان اذكر الكلمات بالضبط ..

ضمت آن ما بين حاجبيها تبحث عن صدى هذه الكلمات الطوة التي امتدت بمعناها الى آفاق لا نهاية لها ..

— ولكن ، ما شكل هذا الشاب؟

— انك لا يمكنك ان تتصورى ما هو عليه .

— هل هو يختلف الى هذا الحد عن الآخرين؟ ..

— بودى ان اصفه لك ولكنه ابعد كثيرا عما استطيع قوله .. ربما وجدته بمسد كل الذي اقوله عنه شخصا عاديا جدا .. ولكنى على يقين من انه ليس كذلك .

انها لم تلحظ شيئا خاصا تميز به هذا الشاب الذى اضفى عليه حبا له كل هذا الرواء والحسن .. قالت تيريز فى نفسها:

— اما انا فان الشهوة تزيد فى صفاء الدهن فلا يفلت منى شئ يتعاق بالرجل الذى اشتتهي لنفسى ..

— تيريز ، هل اذا قبلت الرجل سترينه؟ هل تحملين الى كلماته؟ .. هل تنقلين اليه رسائلى؟ .. اذا سافرت .. اذا وجدت لدى الشجاعة على السفر .

تركت تيريز عالم الضوء والحمم وعادت مرة اخرى كمنحلة تسعى الى داخل حجرة المكتب حيث كان الاب والام ينتظران هبوط حدة الحر وانكسار عناد ابنتهم .. اضطرت الى الذهاب والمجئ مرات عديدة قبل ان ترضى آن بالسفر .. مما لا شك

أقبحه ان تميز ما كانت لتنجح في تحقيق هذا التحول لولا قرب
قدم آل ديجلهم . لقد كانت آن تنتفض فزعا لهذا القوم ، ولما
يمثله من خطر ، خصوصا وان تميز كانت تكرر لها القول :

— ان هذا الشاب الفنى ديجلهم لا عيب فيه بالمرة كزوج .

— ولكن يا تميز انى لم انظر اليه الا قليلا .. انه يلبس
نظارات .. انه اصلع .. انه عجوز ..
— انه فى التاسعة والعشرين ..

— هذا ما اقول : انه عجوز .. سواء اكان عجوزا ام غمير
عجوز ..

فى اثناء تناول طعام العشاء تحدث لانرف وزوجته عن
بيارترن وتساءل عن فنادقها . اخذت تميز ترقب آن وهى جسم
رجماد لا روح فيه .. كانت مدام دى لانرف تكرر القول لابنتها :
— اضفطى على نفسك قليلا .. اضفطى ..

بيما آن تقدم اللعقة الى فمها فى حركة آلية .. ما من لمعة
تبرق فى عينها .. لا شىء لا اجد له وجودا فى نظرها غير هذا
الغائب .. من وقت لآخر ترسم على شفيتها ابتسامة حائرة
لذكرى كلمة سمعتها او لمسة مستها يوم ان قابلت جان ازيفيدو
فى احد الأرواخ المبنية من فروع الشجر وقد انطلقت يده القوية
تمزق جانبا من قميصها .. كانت تميز تنظر الى برنار وقد
انحنى بجسمه فوق الصحيفة التى يأكل فيها .. لم تكن ترى وجهه
لان الضوء آت من خلفه ولكنها كانت تسمع مضغه البطيء ولوكة
للطعام الذى كان يقدهه .. غادرت تميز المائدة فقالت حمايتها :

— انها تفضل الا يراها احد فى تلك الحال .. يودى
او دلثها ، ولكنها لا تجب ان يعنى بها احد .. هذا التعب هو
اقل ما تشعر به المرأة فى وضعها هذا .. لها ان تقول ما تشاء
ولكنها تفرط فى التدخين ..

ثم انطلقت السيدة العجوز تروى من ذكريات حملها :

— انى اذكر حينما كنت أنتظر قدومك ، انى كنت اضطر الى
استنشاق رائحة المطاط .. لم تكن هناك وسيلة غير هذه لاعادة
أمعانى الى مكانها ..

— تميز ، اين انت ؟ ..

— هنا على المقعد ..

— نعم .. انى ارى نار سيجارتك ..

تجلس آن سائدة رأسها الى الكتف الجامدة .. تنظر الى
السماء قائلة :

— انه يرى هذه النجوم .. انه يسمع صلاة المساء ..

ثم تقول :

— قليبى يا تميز ..

ولكن تميز لا تنحنى على رأس الصبية وانما تسألها :

— هل تتألين ؟ ..

— لا .. انى لا أتأمل هذا المساء .. لقد فهمت انى بطريقة او
بأخرى سوف اجتمع به . انا مطمئنة الآن . الامر الذى يهمنى هو
أن يعرف ذلك وسيعرفه منك أنت . لقد صممت على هذا السفر
ولكن عند عودتى سوف اخترق من أجله الحوائط .. ان عاجلا
أو أجلا سأرتدى فى احضانه .. هذا ما انا واثقة منه ثقى بحيانى
نفسها .. لا ، يا تميز لا .. انت على الأقل لا تعطينى ..
لا تحدثينى عن الأسرة ..

— اننى لا أفكر فى الأسرة يا عزيزتى وانما أفكر فيه هو ..
ان المرأة لا تفتحم هكذا حياة الرجل .. ان له أسرته هو الآخر ،
وله مصالحه ، وله عمله وربما كانت له علاقة ..

— لا .. لقد قال لى :

— ليس لى الا انت فى حياتى ..

وفى مرة أخرى قال لى :

— ان حينما هو الشىء الوحيد الذى اعتر به فى هذه اللحظة ..

— فى هذه اللحظة ؟ ..

— ماذا تظنين ؟ هل تعتقدين انه ماكان يعنى الا اللحظة وقتها ؟

لم تعد بتيريز حاجة لان تسألها هل هي تتألم ، فقد كانت تسمعها وهي تتألم في الظلام .. ولكنها ما كانت تحس بشقفة عليها .. لماذا تشفق عليها ؟ ولماذا تثرى لها ؟ ما أحلى أن يعيد المرء اسما يدل على الشخص الذي ارتبط به قلبه برباط وثيق ! ان مجرد الإدراك بأنه عائش حتى ، وبأنه يتنفس ، وبأنه ينام في الليل سائدا رأسه الى ذراعه المطوية ، وبأنه يستيقظ في الفجر ! وبأن جسمه الشاب يمرق وسط الضباب بحركة ..

- هل تبكين يا تيريز ؟ أم اجلى تبكين ؟ انك تحبينني أنت ..
- حشت الصغيرة على ركبتيها وأسندت رأسها الى خاصرة تيريز ثم فحاة انتصبت واقفة قائلة :
- لقد احسست تحت جنبي شيئا ما يتحرك ..
- نعم ، انه منذ بضعة ايام يتحرك ..
- الصغير ؟ ..
- نعم .. انه حتى يرزق ..

عادتا الى المنزل وقد لفت كل منهما ذراعها حول خصر الأخرى كما كانتا تفعلان من قبل على طريق نيزان أو على طريق أرجلوز . تذكرت تيريز انها خافت من هذا الحمل المضطرب . كم من شهوة تعمل في قرارة نفسها سوف تنتقل منها الى هذه المشقة التي لم تتشكل بعد ! .. استعدت تيريز الى ذاكرتها ذلك المساء وقد جلست في غرفتها الى جوار النافذة المفتوحة وقد صاح عليها برنار من أقصى الحديقة : « لا توقدى النور خوفا من الناموس » لقد أخذت في ذلك المساء تعد الأشهر الباقية على الولادة وتمنت لو كانت تعرف الى الله سبيلا لتسأله الا يبرز أبدا الى الوجود ذلك المخلوق المجهول الذى مازال خليطا مضطربا في أحشائها .

- ٦ -

القريب ان تيريز لم تعد تذكر من الايام التي تلت رحيل آن وآل لانتراف الا ما يذكره المرء من فترة النعاس والخمول . وفي

- ٥٤ -

أرجلوز ، حيث تم الاتفاق على ان تجد الوسيلة للتأثير على أزيفيدو هذا وحمله على الانسحاب ، لم تكن تفكر الا في الراحة والنوم . لقد وافق برنار على الا يقيم في منزله ، وانما في منزل تيريز حيث وسائل الراحة اوفر وحيث تتولى عنهم العمه كلارا جميع مشاغل البيت . ماذا كان يعنى تيريز من شأن الآخرين ؟ ليتول كل واحد شئون نفسه بنفسه . ماكان ليحلوا لها شيء قدر هذا الهجوع حتى يحل موعد وضعها . كان برنار يشرها كل صباح وهو يذكرها بما وعدت من الاتصال بجان أزيفيدو . كانت تيريز تنهه ولا تطبق عليه ضبرا الا في عسر متزايد . ربما كانت حالة الحمل - كما يقول برنار - ليست غريبة عن حالة الضيق هذه . وهو نفسه كان يشعر بالمساة الاولى لحالة القلق التي تصيب عادة الأشخاص الذين من فضيلته ، والتي قلما تبرز مع ذلك قبل سن الثلاثين . ان الخوف من الموت كان أمرا غريبا من هذا الشاب القوى البنية حتى ليحسبه الرائي مبنيا من الجبر والرمل . ولكن ماذا كانت تستطيع تيريز ان تقول له وهو يشكو :

- انك لاتدرين بما احس به .. ؟

ان اجسام اولئك الذين يأكلون بنهم شديد ويتحدرون من أرومة عاطلة عن العمل كثيرة التغذية لا يتوفر لها الا مظهر القوة والعافية . ان شجرة الصنوبر التي تزروع في الارض الدسمة وسط الحقول المسمدة تنمو سرعبا وتشمخ ولكنها سرعان ماتعفن في أحشائها ويقتضى الأمر اقتلاعها وهي في عنفوان قوتها . طالما قالوا له ان ذلك من عوارض الأعصاب ، ولكن برنار كان يشعر بالشرخ ينتشر وبالداء يسرى . ثم هذا الامر الذى لا يصدق : انه لم يعد يأكل كما كان يفعل من قبل ، انه لم يعد يشعر بالجوع .

- لماذا لاذهب لاستشارة الطبيب ؟

كان يهز كتفيه ويظاھر بالاستهتار . ان الشك كان يبدو في الحقيقة في نظره اقل هولاً من حكم بالموت قد يصدر عليه . كان يحدث ان تنطلق منه في الليل زفرة تستيقظ لها تيريز مذعورة .. وكانت يد برنار تمسك بيدها وتضغط بها على الجانب الأيسر من

- ٥٥ -

انه من الملاك الصناعيين تراه يمتلك مصمعا لشجر الخشب في بلده ويتولى بنفسه معالجة عصارات اشجاره واشجار اقربائه العديدين في مصنع له في سانت كلير . وهو كرجل سياسي قد عانى كثيرا بسبب طبيعة العنيف ، ولكنه على الرغم من ذلك ذو كلمة مسموعة في دور الحكومة . ما اكثر احتقاره للنساء .. حتى لتبريز نفسها في الوقت الذي كان الجميع فيه يشيدون بذكائها وفطنتها . انه لا يكف منذ وقوع الماساة عن ترديد قوله :

— كلهن مجنونات عندما لا يكن غيبات .

هذا الزنديق كان يبدو عند اللزوم متمزتا .. وعلى الرغم من انه كان يترنم احيانا بعض الحان بيرانجيه ، الا انه ماكان يحتمل الحديث امامه عن بعض الموضوعات ، ويحصر وجهه خجلا كالراهن القريب .. لقد سمع برنار من مسيو دى لانرف ان لاروك عندما تزوج كان طاهرا لم يقرب النساء من قبل :

— ومنذ ان ترمل اكد لى هؤلاء السادة ان احدا لم يعرف قط ان له خليفة .. انه لرجل عجيب ، ابوك هذا ..

— حقا .. انه لرجل عجيب ! .. . ولكن اذا كانت تبريز تتخيل اباها على البعد في هذه الصورة البديعة ، فانها سرعان ماكانت تقيس على القرب نذالته . كان سجيته الى سانت كلير قليلا والى ارجلوز كثيرا ، فهو لا يجب مقابلة آل لانرف . وعلى الرغم من خطر التحدث في السياسة فيما بينهم ، فما يكادون يجتمعون على الطعام حتى يتطور النقاش السخيف بينهم الى مرارة .. كانت تبريز نخجل من المشاركة في حديثهم هذا وكانت تركز كبرياءها في الا فتتح فيها الا حينما يتطرق الحديث الى المسألة الدينية . عندئذ كانت تهب لنجدة مسيو لاروك . كان الصراخ يتصاعد من كل منهم حتى ان العمه كلارا نفسها كانت تسمع بعض اطراف النقاش فتلقى بنفسها في الممعة وتنساب مقلقة صوتها الكئيب في صوت السماء المجوز ذات الآراء الراديكالية المتطرفة :

— من يدري مالذي يحدث في الاديرة !

كانت تبريز ترى ان العمه كلارا في قرارة نفسها اكثر تدبنا من أى فرد آخر في عائلة لانرف ، ولكنها في حرب نفسية بسبب ماهى عليه من الصمم والدمامة والذي قضى عليها بان تموت من غير ان تعرف الحب ومن غير ان يمتلكها رجل . منذ ذلك اليوم الذي تهادرت فيه مدام دى لانرف اتفق الجميع على الايدور الحديث بينهم على الروحانيات فقد كان في السياسة ما يكفي لخراج هؤلاء القوم عن وعيهم .. وسواء اكانوا من اليمينيين ام من اليساريين فان بينهم اتفاقا على هذا المبدأ الجوهري وهو ان الملكية تمثل الخير الوحيد في هذا العالم وان السبب الاسمى للحياة هو تملك الارض . اما ان يحسب للناز حسابا في ذلك والى اى مدى يمتد هذا الحساب ، فان تبريز « التي كانت الملكية في دماها » كانت تود لو ان السؤال اثير في مثل هذه الصراحة الجارحة ، ولكنها كانت تكسره في آل لاروك وفي آل لانرف على السواء تلك المظاهر الكاذبة التي يخفون وراءها مايبينهم من شهوة مشتركة . وحينما كان ابوها يعلن عن « ولاته الذي لايتحول للديمقراطية » كانت تقاطعه قائلة :

— لا داعى لذلك فنحن الان بمفردنا .

انها كانت تقول ان الكمال في السياسة (يقرها) ان الماساة في صراع الطبقات كانت تغيب عن ذهنها في ذلك البلد الذي يمتلك فيها فقر الناس املالا ولا يطعمون الا فان يزيدوا مقدار مايملكون ، ذلك البلد الذي خلق فيه حب الناس المشترك للارض والصيد والاكل والشرب ، اخوة وثيقة بين سكان الحضر والفلاحين . ولكن برنار كان يضم الى هذه الصفات كلها قدرا من التعليم . كان الناس يقولون عنه انه برز من حجره الى الخارج . ان تبريز نفسها كان يسرها ان تجد فيه رجلا يمكن التحدث معه ، رجلا يعلو فوق الوسط الذي برز منه . هذه كانت نظرها اليه حتى ذلك اليوم الذي قابلت فيه جان ازيفيدو .

كان ذلك في الفترة التي تمتد فيها برودة الليل الى صبيحة اليوم كله ثم تنقلب الشمس في وقت الاصيل الى احر ما تكون عليه

صيفا بينما الضباب الخفيف يثيبه على البعد عن قرب حلول
المساء . لقد مرت الحمامات البرية الاولى وما كان برنار ليعود
الى المنزل الا عند هبوط الليل . على انه في ذلك اليوم صحا بعد
ليلة سيئة قضاها ثم ذهب لتوه الى بورودو ليعرض نفسه على
الاطباء .

قالت تيريز تخاطب نفسها :

ما كنت راغبة في شيء عندئذ .. لقد خرجت أسير ساعة على
الطريق لأن من واجب الحبلى أن تسير قليلا . لقد تحاشيت المرون
وسط الأحرار حتى لا أضطر بنسب مصايد الحمام الى التوقف
في كل لحظة وإطلاق الصفارة ثم الانتظار الى أن يسمح الصياد
بصرخة عالية بالمرون . وكثيرا ما يحدث ان يأتي الرد على هيئة
صرخة طويلة : لقد هبط سرب من الحمام وسط اشجار البلوط ،
وهنا يجب الانزواء خوفا من الإصابة . عدت الى المنزل واخذت
اتعاس امام نار الصالون او امام نار المطبخ ، تقوم على خدمتي في
ذلك كله العمة كلارا . وما كنت لاعير التفاتا لتلك العانس التي
لا تكف عن سرد قصص الخدم والفلاحين . انها تلحق القصة
بالقصة ، وكانت قصصها دائما كثيرة ابطالها الفلاحون الذين
تعنى بهم وترعاهم في تفان عجيب ، عجزت قضي عليهم بأن يموتوا
بحسب ما وبأن يعملوا حتى الموت ، وآخرون لا عائل لهم ونساء يقمن
بأشق الأعمال .. كانت العمة كلارا تستعيد في عامية بريئة وفي
شيء من السعادة كلمات هؤلاء البؤساء . انها في الحقيقة لم تكن
تحب احدا الا أنا بينما كنت لا اعيرها ادنى التفات وهي تركع على
ركبتيها تفك اربطة حذائي وتخلع جواربي وتدق قدمي بين يديها
الباليتين .

— كان باليون يحضر لتلقى طلباتنا عندما يسوى الذهاب في
اليوم التالي الى سانت كلير ، فكانت العمة كلارا تمد قائمة بالوامن
وتجمع وصفات الدواء لرضي ارجلوز وتقول له :

— تذهب اول ما تذهب الى الصيدلية فقد لا يكفي اليوم بطوله
لاعداد الادوية .

— اول لقاء لي مع جان .. يجب ان اذكر دقائق كل ظرف .
لقد اخترت ان اذهب الى ذلك الكوخ المهجور الذي طالما تناولت
فيه الطعام مع آن ، والذي اعلم انها احبت ان تقابل فيه ازيفيدو .
لا ، لم يكن في ذهني ان احج الى هذا المكان ، ولكن اشجار الصنوبر
في هذا المكان كانت قد بلغت من الارتفاع حدا لا يسمح باقامة
مصايد الحمام فيها . فما كنت اخشى ان افسد على الصيادين
عملهم . ان هذا الكوخ لم يكن يصلح للصيد منه ، لان القابة فيما
حواله كانت تسد الافق تماما وقم الاشجار لا تتيح تلك الفجوات
الواسعة التي من خلالها يرقب الصيادون قدوم الاسراب . اني
مازلت اذكر ان شمس ذلك اليوم من اكتوبر كانت لاسعة ، وانى
كنت اعانى من السير على الطريق الرملى وان الذباب كان يضايقنى .
ايم كان بطنى ثقيلًا .. !

لقد انحصر همي كله في الاسترخاء على ذلك المقعد المتداعى
داخل مصيدة الحمام المهجورة . ماكدت افتح باب الكوخ حتى
خرج الى شاب عارى الراس عرفت فيه للوهلة الاولى جان
ازفيدو . ظننت في اول الامر اني قد افسدت عليه لقاء غراميا ،
اذ بدا الاضطراب واضحا على وجهه . لقد حاولت عبثا ان انصرف
ولكنه تشبث بى يستبقينى :

— كلا يا سيدتى بل ادخلى انك لن تفسدى على شيئا .

— دخلت الكوخ بعد الحاج منه فعجبت اذ لم اجد به احدا .
لعل الراعية قد افلتت من باب آخر ؟ ولكن ما من عود سمعته
ينكسر . لقد عرفنى هو الآخر على التو ، وكان اول اسم جاء على
لسانه هو اسم آن دى لانراف . كنت جالسة وهو واقف كما
يبدأ لى في الصورة الفوتوغرافية . نظرت من خلال قميمسه الى
ذلك المكان الذى انزلت فيه الدبوس . حب استطلاع مجرد
لاشهوة فيه قط . هل رأيته جميلا ؟ جبهة عريضة قوية وعينان
دعجوان تبتسان عن عنصره وصدغان ممثلتان كثيرا ثم ذلك الشيء
الذى طالما فرزنى من الشبان في تلك السن : بثور على وجهه علامة
الدم المتحرك في عروقه . انه ينضح من جسمه كله ، خصوصا من

كفيه المبتلين اللتين اخذ يحففهما في منديله قبل أن يصفحنى .
ولكن نظرته الجميلة كانت كاوية . لطالما احببت ذلك القم المنفرج
دائما عن اسنان حادة ملتصبة . وانا ؟ كيف كان شكلى ؟ عائلى جدا
على مااذكر . لقد اخذت احدهن في انفة ، وانهمه في صوت وهيب
انه يحدث الاضطراب والفرقة بين افراد عائلة محترمة . انى لاذكر
دهشته لهذا الكلام وضحكته الصبيانية عندما قال :

— اذن انت تظنين انى سوف اتزوجها ؟ . انت تظنين انى اسعى
الى نيل هذا الشرف ؟ .

ارتسم في ذهنى وانا مندهشة مقدار الهوة الواسعة بين ماتشعر
به أن من حب عميق وما يشعر به هذا الشاب من لامبالاة وعدم
اكترات . كان يدافع عن نفسه في حرارة ، حقاً ، لا يمكن مقاومته
بحال . هذه الفتاة اللذيذة ، هل حرم على الشباب أن يلعبوا ؟ وما
كان اللعب بينهما بريئاً إلا أن فكرة الزواج كانت منتفية تماما . لقد
تظاهر بلا شك بمشاركة آن في نواياها ، ولذا اسرعت الى مقاطعته
عند هذا الحد . ولكنه عاد يقول في حماس ان آن نفسها سوف
تشهد له بانته لم يتخط الحدود ولم يتعاد معها الى بعيد ، اما فيما
عدا ذلك فهو لايشك بان الانسة دى لاتراف مدينته له بكل ما فى
حياتها الكئيبة من ساعات مليئة بالسعادة الحقيقية ، وبكل ما قدس
لها ان تلقاه من حب .. ثم قال :

— انك تقولين يا سيدتى انها تتألم ولكن هل تعتقدين ان فى
حياتها شيئا تتطلع اليه خيراً من هذا الالم ؟ لقد وصل الى علمى
صيتك ، واعرف ان هذه الاشياء يمكن ان تقال لك وانك لست
كسائر القوم هنا . قبل ان تبحر آن الى اباس رحلة لها فى ذلك
البيت العتيق القائم فى سانت كلير زودتها بدخيرة ثمينة من
الاحاسيس ومن الاحلام .. ما يكفى لانقاذها ، ربما ، من اليأس
وعلى التحقيق ، من التبلد .

لست اذكر الآن هل ضابقتى منه كل هذا الادعاء وكل هذا

التكلف ام انى انعطفت باحساسى اليه . لقد كانت الفاظه فى الحقيقة
تنساب مسرعة الى درجة انى لم استطع متابعتها فى تفكيره اول
الامر . ولكن لم يلبث ذهنى ان تعود على هذه الزلاقة فى القول .
قال :

— كيف ساع الاعتقاد انى قد اربغ فى زواج كهذا ؟ . او ان
القى بمرساتى على هذه الرمال ؟ او ان احمل اكتافى فى باريس
بفتاة صغيرة ؟ مما لاشك فيه انى سوف احتفظ دائماً من آن بصورة
محببة ، بل لقد كنت فى اللحظة التى فاجتئى فيها زيارتك افكر
فيها فعلاً .. ولكن ، يا سيدتى ، كيف يمكن للانسان منا ان يثبت
على حال ؟ . يجب ان تأتينا كل دقيقة من دقائق الحياة بكل ما فيها
من لذة وسرور يختلفان عن كل ما سبقهما من لذة وسرور .

— هذا النهم الحيوانى الشاب وهذا الذكاء المتجمع فى كائن
واحد تبديا لى فى غرابة اجبرتنى على ان استمع له والا اقاطعه .
حقاً ، لقد شدهت انا ايضا ، وان لم يكلفنى ذلك والله الحمد ثمناً
كبيراً . ولكنى شدهت . وما زلت اذكر ذلك الديبب المصحوب
بزئنين الاجراس وبصرخات الرعاة الذى يبنى على البعد عن اقتراب
قطيع الاغنام . قلت للشباب :

لعل من سخف الامور انبقى معا هكذا فى ذلك الكوخ . وكنت
اود لو انه قال لى من الخير الا نحدث اية حركة حتى ينتهى مرور
القطيع اذن لسعدت بهذا الصمت الى جانبه بهذا التواطؤ معه ،
فقد اصبحت انا الاخرى راغبة اتمنى ان تأتبنى كل دقيقة بما
يسعد الحياة . غير ان جان ازيفيدو سارع بغير اعتراض الى فتح
باب الكوخ وانحنى بأدب عظيم يؤذن لى بالانصراف . لم يصحبنى
الى ارجلوز الا بعد ان تأكد من عدم ممانعتى فى ذلك .. كم كانت
قصيرة رحلة العودة على الرغم من ان مرافقى وجد خلالها من
الوقت ما يكفى للحديث فى الف موضوع ! . ان له قدرة عجيبة
على تجديد ارأئى فى كثير من تلك الموضوعات التى كنت اظننى ملية

بها بعض الشيء . ففي المسألة الدينية مثلا شرعت اعيد على مسمعه
الأفكار التي طالما رددتها أمام أفراد الأسرة ولكنه قاطعني قائلا :
- حقا .. بلا شك .. ولكن الأمر أعقد من هذا كثيرا .

لقد كان يضيف على الحديث وضوحا بدا لي رائعا . ولكن
هل كان كلامه رائعا حقا ؟ انى اظننى متكرة ذلك اليوم . لقد قال
انه طالما اعتقد ان ما من شيء بهم غير السعى الى الله والبحث عن
سبيله . اما ميوله فهي .

- الاسفار وركوب البحر والفرار من اولئك الذين يعتقدون
انهم قد وصلوا الى البر فسكنوا عن الحركة واقاموا لهم ماوى
ينامون فيها . هؤلاء اود لو فررت منهم فرارى من الموت ، فلعلما
احتقرتهم اجتقارا شديدا .

سألنى هل قرأت « حياة الأب دى فوكو » الذى ألفه رينيه
بازان .. واذا تظاهرت بالضحك استهزاء اكد لى ان هذا الكتاب
قد اقض مضجعه :

- ان الحياة الخطيرة بمعناها العميق لا تعنى فقط البحث عن
سبيل الله ، وانما ايضا العثور على هذا السبيل ثم البقاء في نطاقه
بعد استكشافه .

كانت هذه كلماته ، ثم اخذ بعدها يصف لى المفامرة الكبرى
التي يسلكها المتصوفون ويشكو من أن طبعه الذى جبل عليه لا يسمح
له بمحاولة سلوكها . ثم قال انه بقدر ما تعود اليه ذاكرته لا يعتقد
انه كان في يوم من الأيام طاهرا .

« بس هذا الفجور وكل هذه السهولة في الكشف عن مكنون
النفس .. ما اقسى ما أبعدنى ذلك عن الحياء الرفيى الذى عهدته،
وعن التكم الذى يخفى كل منا هنا في طبائنه شئونه الخاصة ! ..
ان الاحاديث في سائت كثير لا تدور الا حول ما هو ظاهر ، اما ما في
القلوب فلا يكشف عنه احد . ما الذى أعرفه في الواقع عن برنار ؟
الا توجد فيه اشياء كثيرة جدا غير صورته هذه المشوهة التي
اكتفى بها كلما عدت الى تصوره ؟ . تكلم جان كثيرا بينما ظللت

انا صامتة . لم تكن شفتاى تنطقان بشير العبارات الدارجة التي
اعتدنا على ترديدها في مناقشاتنا العائلية . وكما ان جميع العريات
هنا « على قدر الطريق » اى ان عجلاتها أعدت بالاتساع اللازم
لتجربى في الأخاديد والحفر المرتسمة في الطريق ، فان أفكارى كانت
حتى ذلك اليوم « على قدر الطريق » هي الأخرى بالنسبة لآراء أبى
وأهل زوجى . سار جان ازيفيدو على الرأس . ما زلت اذكر
قيمه المتفرج عن صدر كصدر الطفل علوه عنق ممتلئة قوى .
هل وقعت تحت تأثير صفاته البدنية ؟ لا ، حقا لا . ولكنه كان اول
رجل التقى به يضع حياة الفكر في المكان الاول من الاعتبار . ان
اساتذته واصدقائه في باريس ممن كان يذكر لى بلا انقطاع آراءهم
ومؤلفاتهم ، ليس من بينهم من يسمح لى باعتباره نابغة من النوايغ .
قال لى انه واحد من نخبة كبرى من الناس « هم الذين يعيشون
حقا » . ذكر لى أسماء معتقدا اننى لا يمكن ان اكون جاهلة بهم ،
وكنت اظاهر بانى لا اسمع هذه الأسماء للمرة الاولى .

« عندما ظهرت حقول أرجلوز عند منعطف الطريق صرخت
قائلة :

- هكذا ! بهذه السرعة ! .. الدخان المتصاعد من الحشائش
المحترقة يتدافع على مقربة من سطح الأرض التي اعطت حصادها
من الشوفان . ومن فجوة وسط التلال ينساب قطع من الغم
كانه سيل من اللبن العكر وقد بدا أفرادها كأنها هم يأكلون الرمال .
كان يجب على جان ان يخترق الحقل ليعود الى فيلميجا فقلت له :
- دعنى أصاحبك . هذه المسائل كلها تشوقنى ..

ولكننا لم نجد شيئا نتحدث عنه . سبقان الشوفان المحشوشة
تخترق حدائى وتؤلمنى . كنت اشعر أنه يود الانفراد بنفسه ليتابع ،
بلا شك ، في حرية فكرة طرات له . قلت له اننا لم نتكلم بعد عن
آن ، فاكد لى اننا لسنا احرارا في اختيار ما تدور حوله أحاديثنا ،
بل ولا ما تجول به تأملاتنا . ثم أضاف :

- والا ، كان علينا ان نستسلم لقواعد السلوك التي اخترعها



المتصوقون ... ان الناس الذين هم على شاكلتنا انما ينساقون دائما للتيارات ويسيروا دائما مع الميول ...

انه يرجع كل شيء الى قراءاته في ذلك الوقت . تواعدنا على اللقاء لتحديد فيما يتعلق بان خطة السلوك الذي يسلكه . كان يتكلم وهو مشتبك التفكير ومن غير ان يجيب عن سؤال وجهته اليه انحنى الى الارض وفي حركة صيبانية اشار الى ساق نبات اقترب به من انفه ومن شفثيه .

- ٧ -

كان برنار واقفا على عتبة الباب ينتظر عودة تيريز . وما ان رأى نوبها في عتمة المساء حتى صاح :

- ليس بى شيء ... ليس بى شيء ... هل تعتقدن انى ؟ وانا على ما تزين من قسوة وعافية ، مصاب بالهزال ؟ انه لامر لا يصدق ، ولكنه مع ذلك هو الواقع . يجب الا نخدمنا المظاهر ... سابع علاجا ... علاج (فاوور) الذى اساسه الزرنخ . الامر المهم هو ان استعيد شهيتى للاكل .

تذكرت تيريز انها في اول الامر لم تهتم لما قاله برنار . ان كل ما يجيئها منه لا يصيبها الا قليلا كاتب هو ضربة موجهة اليها من بعد كبير . لم تكن تصفى لما يقول فقد كان جسمها وروحها كلاهما متجهين الى عالم آخر ، عالم تعيش فيه الكائنات النهمه التى لا تتمنى الا المعرفة والفهم والتربيد - كما قال جان في اقتناعه العميق - ان تتحول الى ما هي عليه .

وعندما تحدثت على المائدة عن مقابلتها مع جان صاح بها برنار :

- لماذا لم تكلمينى عن ذلك ؟ يالك من امرأة عجيبة ! هيه ! ماذا قررتما ؟

أخذت تيريز تشرح الخطة التى تتبع :

- جان ازيفيدو قبل ان يكتب لأن رسالة رقيقة بيدد فيها لامالها . نار برنار عندما أخبرته تيريز ان هذا الشاب لا يرغب ابدا

- ٦٦ -

في هذا الزواج . كيف ؟ هل يعقل الا يرضى واحد من آل ازيفيدو بالزواج من آن دى لاتراف .

- لقد جننت يا عزيزتى .. ! انه انما يعلم فقط ان هذا امر مستحيل . هؤلاء القوم لا يخاطرون بانفسهم عندما يكون الفشل مؤكدا لهم . ما زلت نمره يا صغيرتى ...

حرص برنار على الا يوقد المصباح حتى لا يتكاثر الناموس ولذلك لم ير النظرة التى وجهتها له تيريز . أعلن انه قد استعاد فعلا شهيته للطعام وان طبيب بوردو قد رد اليه الحياة فعلا .

* * *

- هل رأيت جان ازيفيدو بعد ذلك مرات عديدة ؟ لقد غادروا راجلوز في منتصف اكتوبر ... ربما قمنا معا بخمسن او ست نزهات .. لا أقف منها الا عند تلك التى انهمكنا خلالها معا في تحرير الرسالة الى آن . لقد كان الشاب الساذج يتوقف عند عبارات يعتقد ان فيها العزاء كله ، بينما لم اكن ارى فيها ، من غير ان اذكر له شيئا ، الا القسوة والفظاعة . على ان غدواتنا وروحانا الأخيرة تختلط معا في ذكرى وحيدة . كان جان ازيفيدو يصف لى باريس وصدائقاته فيها فكنت اتخيل ذلك كله كملكة واسعة يسودها قانون عام يقضى بان يتحول كل انسان الى ما هو عليه . انك هنا مقضى عليك بان تعيشى في الكذب حتى الموت . هل كان كلامه هذا عن قصد ؟ انى ما كنت لاستطيع سماع عبارته هذه من غير ان اشعر بالاختناق . قال لى :

- انظرى الى هذه الصفحة الواسعة الرتيبة من الجمد وقد حبست في صلبها كل هذه النفوس هنا . قد تحدث أحيانا فجوة تطل من خلالها المياه السوداء . لقد تخطت انسان واضطرب ثم اختفى وعادت القشرة السمكية تلتئم اطرافها من جديد . ذلك ان كل انسان هنا وفي كل مكان آخر يولد ومعه قانونه الخاص . هنا وفي كل مكان آخر القدر مقدور بصاحبه . ومع ذلك يجب على الجميع ان يستسلموا لقضاء واحد كئيب . قد يبسدى البعض مقاومة ، معاندة لهذا القضاء فنشأ من ذلك تلك المأسى التى تخفيها العنادت في طي الكتمان . انهم يقولون هنا :

- ٦٧ -

يجب بسط ستار الصمت . . .
- لقد أجبته على الفور :

- حقا ، لقد سمعت أحيانا الى التعرف على شيء من أخبار ذلك العم الأعلى أو تلك الجدة البعيدة ممن اختفت صورهم الفوتوغرافية من كل ما لدينا من مجموعات ، فما فزت من ذلك أبدا بظلال ، اللهم الا مرة واحدة حيث عثرت على هذا الاعتراف الذي يقول :

- لقد اختفى . . . لقد أزالوه من الوجود . . .

- هل كان جان ازيفيدو يخشى على من هذا القدر المحتوم ؟ لقد أكد لي انه ما كان ليفكر أبدا في محادثة آن عن هذه الأشياء ، إهوى على الرغم من شهواتها الجامحة لا تعدو أن تكون نفسا بريئة لا تكاد تعرف الثورة والعناد ، ومآلها عما قريب الى العبودية والخضوع . . . اما أنت فاني اتحسس في كل كلمة تقوليها حاجة الجائع الظامء الى الصدق والصرامة .

هل يجب علي ان انقل هذه الاحاديث نقلا كاملا الى برنار ؟ من الجنون أن أتوقع منه فهما صحيحا لذلك كله . على انه يجب أن يعرف اني لم استسلم بغير مقاومة وكفاح . أذكر اني عارضت الشاب بقولي انه يكسو بالعبارات الباردة أخط ميول الانحدان وأحقرها . بل لقد استعنت في ذلك بما كنت أذكره من القراءات الاخلاقية التي كانوا يفرسونها علينا في المدرسة الثانوية . قلت له :

- ما معنى ان يتحول الانسان الى ما هو عليه ؟ اننا لا نصل الا الى مستوى ما نخلقه بانفسنا لانفسنا .
لا حاجة الى مزيد من الشرح هنا وربما كان الشرح واجبا عند مقابلة برنار .

كان ازيفيدو ينكر أن هناك مسقوتا أسوأ من تنكر الانسان لذاته . برغم انه ما من بطل ولا من قديس الا ودار ولف حول نفسه أكثر من مرة ، الا وبدا أولا بالوصول الى أقصى حدود نفسه . كان يكرر قوله :

- يجب على المرء أن يتجاوز طاقة نفسه ليجد السبيل الى الله . اما قبول المرء لنفسه على علاقتها فهو أمر يقضى على الاخيار منا بأن يواجهوا بعضهم بعضا في قتال يخوضونه مكشوفى الوجوه تهر متخذين الى الخدمة سبيلا . لذلك كثيرا ما ينتهي الامر بهؤلاء المتحررين الى اعتناق أضيق الديانات رحابا .

- من الخير الا اناقش مع برنار استقامة هذا الاتجاه الاخلاقي وصحة فحواه . بل ومن الخير أيضا ان اسلم له بان هذه كلها ان هي الا خزعات وسفسطة لا طائل تحتها . ولكن الشيء الذي يجب ان يفهمه وان يجهد عقله في فهمه هو ، الى أي مدى يمكن لامرأة من قصيلتي ان تتأثر بهذه الآراء .

كان برنار يخلع حذاءه في جانب المطبخ القريب وهو يتحدث باللهجة العامية عن نتيجة صيد اليوم . الحمامات الحبيسة تنتفض داخل الكيس اللقي على المنضدة . كان برنار يأكل ببطء وهو سعيد بشهيته التي عادت اليه ويعد بعنابية قطرات دواء (الفاولر) المتساقطة .
كان لا يكف عن ترديد قوله :
- هذه هي الصحة والعافية . . .

هناك قدر كبير من النار يلتهب في المدفاة وما كان عليه بعد الانتهاء من الطعام الا أن يدير مقعده ليووجه الحرارة بقدميه المتعلتين بالوبر . اطلق عينيه على الجريدة التي كان يقرأ فيها وكنت اسمع أحيانا شخيره وأحيانا أخرى لا أسمع له أنفاسا . . . باليونت تنتقل بعض الوقت في المطبخ ثم تأتي بالشموخ ، وبعد ذلك يسود الصمت . . . صمت أرجلوز الرهيب . لا يستطيع من لم يعرف منطقة اللاند القضية ان يتصور هذا الصمت . انه يحيط بالبيت كما لو كان جدارا كيفا استند الى الفسابة التي لا يتنفس فيها مخلوق ، اللهم الا تلك اليوم المولولة التي تذكرونا في رنج الليل البهيم بالانات المكبوتة في صدورنا .

- لم اشعر كل الشعور بهذا الصمت الثقيل الا بعد رحيل ازيفيدو . فطلما كنت أعرف ان الصباح سيأتي بجان مرة أخرى ،

كنت أرى الظلمات المترامق في الخارج وقد زالت عنها الرهبة وفقدت كل ما فيها من أخطار . كان رقاده على القرب يعلا الكون حولي ويبدد الليل الكثيف . ولكن منذ أن غادر أرجلوز على اثر لقائنا الأخير الذي واعدني فيه على اللقاء بعد عام وهو يعرب عن أمله في أن يراني بعد تلك المدة وقد أصبحت قادرة على انقاذ نفسي . . .

— ما زلت حتى اليوم أجهل هل كان كلامه هذا عقوا ، أو أنه كان يرمي به إلى غرض في نفسه ، واني لأميل إلى الاعتقاد أن هذا الباريسي لم يكن يطبق الصمت ، صمت أرجلوز ، وأنه إنما كان يعشق في مستمعه الوحيد — منذ أن غادرني وأنا أشعر بنفسى أسير في نفق لا نهاية له وأخوض في ظلام متكاثف متزايد ، وكثيرا ما تساءلت ، هل قدر لي أن أصل إلى الهواء الطلق قبل أن يحل بي الاختناق ؟ إلى أن أضع جملي في يناير لن يحدث شيء جديد . . .

هنا ترددت تيريز . أنها تحاول أن تتعد بفكرها عما حدث في ذلك البيت في أرجلوز بعد سفر جان بيومين . قالت لنفسها :
— لا ، لا ، لا علاقة لذلك بما يجب على أن أشرحه لبرنار بعد حين . ليس لدى وقت أضيعه في المسالك التي لا تؤدي إلى شيء .

ولكن الفكر عنيد يأبى إلا أن يمرح حيث شاء . لن تخرج تيريز من ذاكرتها تلك الليلة من شهر أكتوبر . في الدور الأعلى كان برنار يخلع ملابسه بينما كانت تيريز تنتظر إلى أن تهمد الشعلة الملتهية في المدفأة قبل أن تلحق به . أنها سعيدة إذ أتاحت لها لحظة تبقى فيها بمفردها وتفكر : ماذا يفعل جان ازيفيدو في تلك الساعة ؟ لعله يحتمي الخمر في تلك الحانة الصغيرة التي طالما حدثت عنها . . . أم لعله ، واللييلة على ما هي عليه من جمال ، يدرع الطرقات في سيارة ومعه صديق وسط غابة بولونيا القفرة . . . ربما كان يعمل على منضدته بينما باريس تمج وتضخج على البعد . . . الصمت . . . أنه هو الذي يخلقه لنفسه ، هو الذي يستخلصه من وسط ضجيج العالم . . . لم تكن مفروضا عليه كذلك الصمت الذي

تئن منه تيريز وتختنق به . هذا الصمت ، أنه من خلقه هو ، ولا يمتد إلى أبعد من ضوء الصباح ولا إلى أبعد من الإفرف المحملة بالكتب . هكذا كانت تيريز تفكر ، وإذا بالكلب يبيح ثم يغمم ، وإذا بصوت متهاك يأتي من الردهة ويدخل الهدوء إلى قلبها : أن دى لا تراف فتحت الباب . لقد عادت إلى سانت كلير راجلة في الليل ، وقد انقلبت حذاءها أحمال من الطين . كانت عينها تلمعان في وجهها الشاحب كان السنين الطوال قد تركت عليه آثارها . ألت بقبعتهما على أحد المقاعد وسالت :

— أين هو ؟

ظن تيريز وبرنار بعد كتابة الرسالة أن الأمر قد انتهى . ولم يدركا بخلدهما أن أن قد تصر على رأيها ولا ترجع عنه ، كما لو كان الإنسان يلين أمام العقل والتعقيل عندما يتعلق الأمر بحياته نفسها . لقد استطاعت الإفلات من رقابة أمها وألقت بنفسها في أحد القطارات ، وعلى الطريق المظلم المؤدى إلى أرجلوز استضاءت بانعكاسات السماء الصافية المتسللة من بين قمم الأشجار .

— أن كل ما يهمها هو أن تراه ثانية . فإذا ما رآته سيعود لها سلطانها عليه . يجب أن تراه .

كم من مرة سقطت أعياء في الطريق والتوت قدمها في الأخاديد ، فقد كانت تتسجل الوصول إلى أرجلوز . هاهي ذي تيريز تخبرها أن جان قد رجل ، أنه الآن في باريس . أن أشارت برأسها علامة النفي . أنها لا تصدق . أن بها حاجة إلا تصدق حتى لا تنهار أعياء وآيسا :

— أنك تكذبين كما كذبت دائما .

وإذا أخذت تيريز تعرض محتجة قالت آن :

— آه ، لقد توفر لك أنت روح الأسرة ! أنك تتظاهرين بالتحزن واتساع الأفق ، ولكن منذ زواجك أصبحت فجأة من نساء العائلة . . . نعم ، نعم ، مفهوم . . . لقد ظننت أنك تصنعين بي خيرا . . . لقد كنت تخونينني لتتقديني . . . أنى أعفبك من الشرح .

أسرعت تفتح الباب فسالتها تيريز الى أين هي ذاهبة ؟

— الى فلميجا ، في بيته . . .

— اكرر لك القول أنه رحل منذ يومين .

— لا اصدقك .

خرجت آن وأسرعت تيريز توقد القنديل المعلق في الدهليز ولحقت بها .

— انك تضرين علي غير هدى يا صغيرتي آن . هذا طريق بيورج كما تعلمين . فلميجا في هذا الاتجاه .

اخترقتا الضباب المتصاعد من الحفول . استيقظت الكلاب هاهي ذى شجيرات البلوط في فلميجا. هذا هو بيته انه ليس راقدا وانما هو ميت . دارت آن حول هذا القبر الخالي وطرقت الباب بكلتا قبضتيها . وفقت تيريز لا تتحرك وقد وضعت القنديل على العشب . رات شيخ صديقتها الخفيف يلتصق بكل نافذة من نوافذ الدور الارضى . لاشك ان آن تكرر في تلك اللحظات اسما من غير ان تصرخ به . لعلمها ان الصراخ لا يجدى فتيلا . حجبتها البيت لحظة ثم عادت الى الظهور وارتمت على عتبة الباب عاقدة ذراعيها حول ركبتيها ، وقد اخفت بينهما وجهها . رفعتها تيريز وجذبها خلفها . اخذت آن تكرر وهي تتعثر : « سأذهب غدا صباحا الى باريس . ليست باريس كبيرة الى هذا الحد . ساعثر عليه في باريس . . . »

قالت هذا بصوت الطفلة التي كفت عن المقاومة واسلمت امره الى الاقدار .

كان برنار ، وقد ايقلته اصواتهما ، ينتظرهما في الصالون . ان تيريز تخطىء اذ طردت من ذاكرتها ما حدث في تلك الليلة بين الاخ واخته . هذا الرجل القادر على القبض بقوة على يد هذه الصبية المنهوكه ، القادر على جذبها الى داخل احدى حجرات الدور العلوى والقادر على اغلاق الباب عليها وحبسها ، هذا

الرجل هو زوجك يا تيريز ، برنار الذي سيصبح بعد ساعتين القاضي الذي يحكم عليك . ان روح العائلة هو الذي يقرده وينقذه من كل تردد . هو يعرف دائما وفي كل الظروف ما يلزم عمله من أجل مصلحة العائلة . انك في غمرة القلق والتوجس تمدين دفاعا طويلا ، ولكن الرجال الذين لا مباديء لهم هم وحدهم الذين يستطيعون ان ينزلوا عن رأيهم امام الاسباب التي يبديها الآخرون . ان برنار يهزأ بالحجج التي تبديتها ، انه يقول : انى اعلم بما يجب على عمله . . .

انه يعرف دائما ما يجب عليه عمله . واذا ما تردد في ذلك قال :

— لقد تحدثنا عن ذلك في العائلة وراينا ان . . .

كيف يسوغ لك ان تشكى في انه قد اعد قراره فعلا ؟ لقد تقرر مصيرك الى الابد . خير لك اذن ان تنامى .

— ٨ —

بعد ان اعاد آل دي لاتراف آن مهزومة مستسلمة الى سانت كثير لم تفاد تيريز ارجلوز حتى قرب موعد وضئها . عرفت الصمت الحقيقي هناك في تلك الليالي التي لا نهاية لها من ليالي نوفمبر . ارسلت رسالة الى جان ازيفيدو ولم تتلق عنها ردا . لاشك انه رأى ان تلك القروية لا تساوى ما قد يلقاه في مكابتها من ملل . انها امرأة حامل والمرأة الحامل لا توحى بشيء من الذكريات الجميلة . لعله ، على البعد ، قد حكم على تيريز بالتفاهة هذا الفنى الذي ربما استوقفته مشكلات المواقف الكاذبة . ولكن ما الذى يستطيع ان يفهمه هذا الفر من تلك البساطة الخداعة ومن تلك النظرة المباشرة ، ومن تلك الحركات التي لم يخالطها قط تردد . انه ، في الحق ، كان يعتقد انها كالصغيرة آن ، قادرة على ان تأخذ عليه كلمته وان تترك كل شيء لتتبعه . ان جان ازيفيدو يتحاشى النساء اللاتي يسارعن الى القاء اسلحتهن لكى يتمكن المهاجم من رفع الحصار بغير عناء . انه ماكان يخشى من النصر الا ثمرة . على ان تيريز كانت تجهدهم نفسها لتعيش في دنيا هذا الشاب ، غير ان الكتب التي طالما حدثها عنها جان في اعجاب والى احضرتها من يوردو بدت لها غير مفهومة . ما اقسى الغضاء الذى تعيش فيه

— ٧٢ —

— ٧٢ —

تيريز ! ... لا جدوى من ان تنكب على اعداد الاقمطة اللازمة لولودها ، فقد كانت مدام دى لاتراف تقول ، انها لم تخلق لمثل هذا العمل . كثيرات هن النساء اللوانى يمتن فى الريف فى عملية الوضع . ولطالما ابكت تيريز العمة كلارا ، وهى تؤكد لها انها ستنتهى الى ما انتهت اليه امها من قبل ، وانها لن تغت من الموت . كانت تضيف الى ذلك انها لا يههما ان تموت . كذب . انها لم ترغب قط فى الحياة قدر رغبتها فيها فى ذلك الوقت كما ان برنار لم يظهر نحوها قط رعاية وعناية قدر ما يظهره لها الآن . « ان عنايته لم تكن لى انا وانما لما كنت احمله بين احشائى » كثيرا ما كان يقول لها بصوته الاجش الكئيب :

— كلى من هذا الصنف ... لا تأكلى من السمك ... لقد مشيت كثيرا اليوم .. لم تكن نصائحها هذه لتؤثر فى الا بقدر ما يؤثر اللوم فى المرخصة الريفية التى يعيبون عليها طبيعة لبنا . ان ما يحترمه آل لاتراف فى شخصى هو الوعاء المقدس ، ذلك المستقر الذى تستكن فيه ذريتهم . لست أشك انهم ، اذا لزم الامر ، يضحون بى من اجل هذا الجنين . لم أكن فى نظر الاسرة الا الفرع ولم يكن يهم غير الشجرة المعلقة باحشائى .

كان عليهما ان تعيش حتى نهاية ديسمبر فى ظلام . الم تكف اشجار الصنوبر التى لا عدد لها تقيم حول البيت المقيم سياجات من افرعها الكثيرة ، حتى ياتى المطر المنهمر فيضيف الى هذه السياجات سياجات جديدة . وعندما اوشك الطريق المؤدى الى سانت كلير ان يصبح غير صالح للسير فيه نقلونى الى القرية فى البيت الآخر هناك الذى لا يقل ظلاما عن بيت ارجلوز الا قليلا . اشجار الحور العتيقة المنتصبة وسط الميدان تتنازع مع رياح الشتاء وربقاتها الاخيرة . لم تكن العمة كلارا لتستطيع الحياة فى غير ارجلوز ، لذلك كثيرا ماكانت تقطع الطريق الى فى الطقس العاصف على عربتها الصغيرة التى بنيت هى الاخرى « على قدر الطريق » . كانت تحضر لى تلك الحلوى التى طالما احببتها وانا بنت صغيرة ، والتي كانت تظن انى مازلت احبها الآن : تلك الكرات

من دقيق الشوفان المعجون بالسل ، وتلك الفطائر التى تجيدها صنعها . لم أكن ارى آن الا فى اوقات الطعام ولم تكن هى توجه الى الحديث . يبدو انها استسلمت وكفت عن المقاومة ، ففقدت بذلك حيويتها جميعا ، كان شعرها المشدود الى الخلف يكشف عن اذنيها القبيحتين الشاحبتين . لم يكن أحد يذكر اسم ابن ديجلهم ، غير ان مدام دى لاتراف قالت ان ابنها وان لم تبد موافقتها بعد لم تكن قد اعلنت رفضها تماما . ما اصدق الحكم الذى اصدره عنها جان ! لقد كفى قليل من الزمن لوضع اللجم حول عنقها ولحملها على السير كما يشاءون ، برنار لم يكن فى خير حالته ، لانه عاد الى احتساء الشراب قبل تناول الطعام . ما هى الاحاديث التى كان هؤلاء القوم يتبادلونها من حولى ؟ انهم يتحدثون كثيرا عن قسيس القرية . فقد كنا ، كما اذكر ، نلقن فى مواجهة الكنيسة . لقد تساءلوا مثلا لماذا اجتاز الميدان اربع مرات فى ذلك اليوم ، وكان فى كل مرة يعود من طريق غير التى سلكها من قبل .

وجهت تيريز ، بناء على ما سمعته من جان ازيفيدو ، اهتماما خاصا الى هذا القسيس الذى مازال فى ريعان الشباب ، والذي لم يقم لنفسه اتصالات بأبناء ضيعته ، فراوا فيه لذلك رجلا متمجرا متعاليا : « ليس هذا هو الصنف الذى يصلح هنا ... » . فى خلال زيارته القليلة لآل لاتراف لاحظت تيريز صدقيه الابيضين وجبهته العالية — اليس له من صديق ؟ كيف يقضى امسياته ؟ ما الذى جملة على اختيار هذا النوع من الحياة ؟ قالت مدام دى لاتراف :

— انه رجل مستقيم يودى العبادات كل مساء ، ولكن يعوزه الاقناع . انى لا ارى فيه ما يقال عنه ، الرجل النقى الورع . ثم اوجه النشاط انه يهملها تماما .

عابت عليه الفاء فرقة الموسيقى المحلية ، كما ان الاهالى لا يكفون عن الشكوى من انه لا يصاحب التلاميذ الى ملعب الكرة .

انه لشيء جميل من القسيس الأ يرفع انفه عن الكتب ، ولكن
الرعية سرعان ما تضيع « أخذت تيريز تتردد على الكنيسة لتستمع
الى عظاته :

– لقد أقبلت يا صغيرتى فى الوقت الذى تبيع لك فيه حائلتك
الامتناع عن الحضور .

لقد كانت الخطب التى يلقيها هذا القسيس حول العقيدة او
الاخلاق ذات طابع عام ، ولكن ما كان يعنى تيريز منها هو نبذة
الصوت ونبل الاشارة . ولكن بعضا من كلماته كان بها معنى عميق
لهله يستطيع هو ان يجد الحل لهذا العالم المضطرب الذى يعتزل
فى نفسها . انه يختلف عن الآخرين اذا اضاف الى الوحدة الداخلية
التي يعيش فيها هذا الغشاء الذى تخلقه المسوح حول من يرتديها ،
اى راحة يستنبها هذا الرجل من طوقسه اليومية ؟ لقد ودت
تيريز لو استطاعت ان تحضر القداس الذى يقيمه فى وسط
الاسبوع ، حيث تخلو الكنيسة الا من احد الشمامسة وبنكفىءهو
على كسرة من الخبز يتمم فوقها بعض الكلمات . ولكن عملا
مثل هذا قد يبدو غريبا فى نظر العائلة وفى نظر اهل القرية جميعا
اذ يهيمونها عندئذ بالتحول الى طريق الدين .

ايا كانت الآلات التى قاستها تيريز فى هذه الفترة ، فان تبرمها

ايا كانت الآلام التى قاستها تيريز فى هذه الفترة فان تبرمها
بالحياة لم يبدأ الا فى اليوم التالى لوضعها انها لم تعد تطيق
الحياة حقا . لم تكن تبدى من ذلك شيئا فى مظهرها ، فلا عراك بينها
وبين برنار وكان احترامها لاهل زوجها يفوق احترام زوجها لهم
هنا كانت تكمن المأساة ، اذ لا يوجد للخضام سبب ، وما كان من
المتوقع ان يحدث السبب الذى يمنع هذا الهدوء والترتيب
من ان يستمر هكذا حتى الموت . لم تكن تيريز ترى برنار بل ولا
اهل زوجها . لم تكن كلماتهم تصل اليها ولم تكن بها حاجة لان ترد
عليهم . هل كان تفكيرهم متجانسا ؟ وهل كانت لفهم واحدة ؟

انهم يطلقون على الكلمات الهامة معاني تختلف عما تعنيه هى . اذ
ما صدرت عنها صرخة صادقة اصطدمت لدى العائلة بجمود مثير
لقد اتفق الجميع على القول ، انها تهوى الاندفاع فى نوبات الغضب
.. كانت مدام دى لاتراف تقول: انى اتظاهر بالا اسمع شيئا
فاذا تمادت فى عدم الاكتراث قالت :
انها تعلم ان شيئا من ذلك لا يؤثر فىنا ...

ولكن مدام دى لاتراف لم تكن تطبق من تيريز تظاهرها بالضيق
لما يذكره الناس عن الشبه بينها وبين الصغيرة ماري . ان ملاحظات
الناس حول هذا الشبه كانت تثيرنى نفسها من الثورات المانستطيع
فى كثير من الاحيان اخفاه . كانت تقول :

– هذه الطفلة لا تشبهنى فى شيء . انظروا الى هذه البشرة
النسراء والى هاتين العينين السوداوين وانظروا الى صدرى ، لقد
كنت انا طفلة شقراء .

لم تكن تريد بينها وبين ماري شبيها . لم تكن ترغب فى ان
يوجد لها مع هذا الكائن الذى انفصل عنها شيء مشترك . بدأت
الاقاويل تسرى بان عاطفة الأومة معدومة فيها ، ولكن مدام
دى لاتراف كانت تؤكد انها انما تحب ابنتها على طريقته الخاصة
– حقا يجب الا تتالها بالاشراف على استحمامها او بتغيير
قراشها ، فهذا من الامور التى لا تطيقها ولكنى رايبتها تقضى
الامسيات الطويلة الى جانب المهد جالسة ، وقد امتنعت عن
التدخين تنظر الى الطفلة النائمة .. على ان لدينا خادمة امينة
... ثم هناك آن ... يالها من فتاة ... اقسم لكم انها تستطيع
يوما اما مثالية صغيرة ...

منذ ان اخذت الطفلة تطلق انفاسها فى المنزل عادت آن الى
الحياة ، ان المهد يجتذب اليه النساء دائما .. ولكن آن اكثر
من غيرها كانت تتناول الطفلة وفى قلبها سرور عميق . ولكى تجد
لنفسها حرية الوصول الى الصغيرة ، عادت الى مصالحة تيريز من
غير ان تبقى على شيء من مودتهما القديمة فيما عدا المجاملات
العائلية . واكثر ما كانت تخشاه الشابة من تيريز غيرتها كام .

– ان الطفلة تعرفنى اكثر مما تعرف امها . انها تضحك كلما

ترانى . فى يوم كنت احملها بين ذراعى واذا بها تصرخ صراخا عاليا
هندما جاءت تيريز لتأخذها . انها تفضلنى على من سواى حتى
لاشعر بالحر ج احيانا . . .

لم يكن بان حاجة لاي شعور بالحر ج ، فقد كانت فى هذه
المرحلة من حياتها بعيدة عن ابنتها بعدها عن كل شىء آخر ، كانت
ترى الناس والاشياء وجسمها ذاته وعقلها نفسه سرايا وهباء بهيم
بعيدا عنها . كان برنار وحده هو الذى يشمر وسط هذا الفراغ
بحقبة الوجود الخفيف . جسمه الضخم وصوته الانفى واوامره
الصارمة ، كل شىء فيه ينبىء عن الرضا . لم يكن يفهم ما معنى
الخروج من العالم . كيف يتم هذا الخروج ؟ والى اين نذهب ؟
بشائر الحر بدأت تثير تيريز . ما من شىء ينهبها الى ما هى مقدمة
عليه من عمل . ماذا جرى فى تلك السنة ؟ انها لا تذكر من ذلك
شئيا ، لا حوادث ، لا عراق . كل ما تذكره انها شعرت نحو
زوجها فى يوم عيد الفجران بكراهية لم تشعر بمثلها من قبل .

وقفت خلف النافذة تنظر الى الموكب يمر امامها . يكاد برنار ان
يكون الرجل الوحيد السائر خلف مظلة الاحتفال . فى لحظات
افقرت فيها القرية ، كما لو كان اسدا وليس حملا ، ذلك الذى
اطلقه فى الطرقات . كان الناس ينزويون فى الاركان حتى لا يضطروا
الى خلع قبعاتهم او الى الركوع عند مرور الموكب . بعد زوال
الخطر تعود الابواب فتفتح الواحد بعد الآخر . نظرت تيريز الى
القسيس وهو يسير مغمض العينين رافعا بين يديه هذا الشىء
الغريب . كانت شفاهه تتحركان . مع من يتكلم وهو فى هذا الحزن
العميق ؟ بعده مباشرة يجىء برنار ، انه - كما يقسول - يؤدى
واجبه .

تالت الاسباب من غير ان تسقط قطرة واحدة من المطر وكان
برنار يعيش فى رعب خوفا من الحرائق ، وقد عاودته من جديد ملعة
القلب . لقد احترقت خمسمائة هكتار فى ناحية لوشا .

- لو ان الريح هبت شمالا لضاعت كل اشجار الصنوبر فى
اليزاك .

لم تكن تيريز تدرى ما الذى تنتظره من تلك السماء التى
لا ترحم . ان يسقط المطر ابدا لا قد ياتى يوم تضطرم فيه الغابة
من كل جانب ، ولن تسلم القرية نفسها من الحريق . لماذا
لا تندلع الحرائق فى قرى اللاند ؟ اليس ان الظلم ان تختار النيران
دائما اشجار الصنوبر طعاما لها ، ولا تختار الرجال ابدا ؟ النفاش
لا ينتهى بين افراد العائلة حول اسباب الكارثة . هل هى سيجارة
ملقاه ؟ ام هو الهمال والتراخى ؟ لقد رات تيريز فى منامها انها
استيقظت ليلة وخرجت من الدار وتوجهت الى اكثر اجزاء الغابة
ازدحاما بالهشيم والقت سيجارتها وانتظرت الى ان ملى الدخان
الكثيف السماء فى الفجر . . ولكنها طردت هذا الخاطر من ذهنها
فهى تحمل فى دماغها حبا عميقا لاشجار الصنوبر . ان مايملأ قلبها
من كره ليس موجها الى الاشجار .

هاهى ذى فى اللحظة التى تواجه فيها الفعلة التى اقترفتها . اى
تعليق لها تقدمه الى برنار ؟ ليس امامها الا ان تعيد الى ذاكرته ،
تقطعة بعد تقطة ، كيف حدث الامر . كان ذلك يوم الحريق الكبير
الذى اندلع فى مانو . الرجال يدخلون الى غرفة الطعام حيث كانت
الاسرة تتناول الافطار على عجل . بعضهم يؤكد ان النار تبسود
بعيدة جدا عن سائت كبير والبعض الاخر يصر على ضرورة دق
اجراس الكنائس ايدانا بالخطر . عصارة الاشجار المحترقة تملأ
جو ذلك اليوم المتهب . بينما بدت عين الشمس وكان عليها غمامة
من الوسخ . تذكرت تيريز ما كان عليه برنار فى تلك اللحظة . لقد
كان مستديرا براسه يستمع الى البيانات التى ينقلها اليه باليون ،
بينما تاهت يده الضخمة المكسوة بالشمر فوق حافة الكوب
وقطرات « الفاولر » تتساقط فى الماء . تجرع الدواء دفعة واحدة ،
ولم تنتبه تيريز وقد اذهلتها الاحداث ، فلم تقل له انه ضاعف
الجرعة المعتادة . غادر الجميع المائدة ولم يبق الا هى فاخذت تقشر
حببات اللوز الاخضر فى فتور وانصراف عما يجرى . ان الكارثة
التى دعر لها الجميع لا تعنيها فى شىء فليس بعينها الا ما يدور فى
نفسها من مأس . لم تدق اجراس الكنائس معلنة حالة الخطر ؟
ولم يلبث برنار ان عاد :

— هذه المرة كنت انت على صواب في عدم الانزعاج .. ان
الحرق في جهة مانو بعيدا عنا ...
ثم سأل :

— هل تناولت دوائي ؟

ومن غير ان ينتظر الرد على سؤاله عاد فأسقط من قطرات
الدواء في الكوب وشرب . ولم تتلفظ بكلمة تكاسلا منها بلا شك
وارهافا - ما الذي تأمل فيه في تلك اللحظة ؟

— من المستحيل ان اكون قصدت عامدة الى التزام السكوت .

ولكنها في تلك الليلة ، وهي واقفة الى جوار فراش برنار، الذي
كان يتقيا امعاءه ويكي ، سألتها الدكتور بيديمي عما حدث في خلال
النهار ، لم تذكر شيئا مما رآته وهي على مائدة الطعام . وما كان
يسر لها لايجاد الشبهات عنها ان تلفت نظر الطبيب الى كمية
الزرنخ التي تناولها برنار . كان في استطاعتها ان تقول مثلا :

— لم انتبه الى ذلك على التسو .. كنا جميعا في ارتباك
جنوني بسبب خطر الحريق .. ولكني اؤكد لكم الان انه تناول جرعة
مضاعفة ... » لم تقل شيئا وظلت صامتة . هل شعرت في
نفسها بوجود دافع .. مجرد دافع الى الكلام ؟ ان ما حدث في اثناء
الافطار وكان في علمها من غير ان تدري ، بدأ يبرز بعد ذلك من
قرارة نفسها مبهما غامضا في اول الامر ، ولكنه واضح بعض
الوضوح في شعورها .

بعد انصراف الطبيب نظرت تيريز الى برنار وقد استسلم
اخيرا للنوم . قالت لنفسها .

— لا يوجد شيء ثبت ان ما حدث له كان نتيجة « ذلك الامر »
لعلها ازمة من ازمات التهاب الزائدة الدودية على الرغم من عدم
وجود اغراض اخرى تدل عليها ، أم لعلها حالة حمى خبيثة ..
ولكن برنار سرعان ما عاد الى حالته الطبيعية بعد ذلك بيومين .
« هناك احتمال كبير ان يكون ما حدث هو نتيجة ذلك الامر » .
هل هي واثقة من ذلك ؟ كلا . انها تود لو استطاعت ان تستوثق
منه . « نعم . لم اكن اشعر ابدا اني فريسة اغراء فطع . كل

ما هنالك انه حب استطلاع - ربما كان على شيء من الخطورة -
اردت ان اشفيه في نفسي . في اليوم الاول قبل ان يدخل برنار الى
غرفة الطعام اسقطت في كوبه قطرات من (الفاولر) . واني لاذكر
الآن اني كررت القول لنفسى : هذه المرة الوحيدة فقط حتى
استوثق من الامر . سأعرف اذا ما كان هذا هو الذي سبب له
ما حدث . مرة واحدة وبعدما ينتهي الامر »

هذا القطار من سرعته واطلق صافرة طويلة ثم عاد يستأنف
السير . مصباحان او ثلاثة في وسط الفلام . انها محطة سانت
كثير لم يعد لدى تيريز شيء تتفحصه . لقد هوت في جوف
الجريمة العميق فابتلعها الجريمة . اما ما حدث بعد ذلك فهو
معلوم لدى برنار بقدر ما هو معلوم لديها : لقد عاوده الداء فجأة
وسهوت تيريز الى جوار فراشه ترعاه ليلا ونهارا على الرغم من
حالة الاجهاد الشديد التي كانت تعانيها ، وعلى الرغم من عزوف
نفسها عن كل طعام .

لقد حاول برنار ان يحملها على تناول دواء الفاولر لتقوى
وحصلت من الدكتور بيديمي على تذكرة بذلك .

ياله من ساذج هذا الطبيب !

لقد كان بيدي دهشته لهذا السائل الاخضر الذي يلفظه برنار
من احسانه ، ولم يكن يعرف سببا لهذا التسافر الواضح بين
نبض المريض ودرجة حرارته . لطالما لاحظ في الكثير من حالات
البارانتيويد وجود النبض الهادي ، على الرغم من ارتفاع درجة
الحمى . ولكن ما معنى هذه النضبات المتتابعة السريعة مع هذه
الحرارة التي تقل عن الدرجة العادية ؟

انها حالة حمى خبيثة . لاشك في ذلك ، هي الحمى ، ان
فيها تفسيرا لكل ما يرى .

فكرت مدام دي لاتراف في استحضار طبيب كبير لاستشارته
ولكنها لم تكن ترغب في اخراج الدكتور بيديمي هذا الصديق
القديم ، هذا بينما تيريز تخشى على برنار من اخطار الوهم والخوف
على حياته . ولكن في منتصف اغسطس وعلى اثر ازمة اكثر حدة

من سابقاتها اعرب الدكتور بيدمي من تلقاء نفسه عن رغبته في الاستعانة بأحد زملائه .

من حسن الحظ بدأت حالة برنار في التحسن من اليوم التالي وما أن انقضت اسابيع ثلاثة حتى اخذ الجميع يتكلمون عن النقاة .

وقال الدكتور بيدمي :

— لقد نجوت بأعجوبة . لو أن هذا الطبيب الكبير حضر الى هنا لاختص نفسه بالفخر كله .
طلب برنار أن ينتقل الى ارجلوز موقفا انه قد يشفى تماما عند حلول موسم صيد الحمام البري .

اجهدت تيريز نفسها كثيرا في تلك الفترة ، فقد اصيبت العمه كلارا بازمة روماتزمية حادة اهدتها في فراشها ، ووقع الحمل كله على كاهل المرأة الشابه . مريضان وطفلة في حاجة الى خدمة ورعاية بالإضافة الى المهام التي تركتها العمه كلارا معلقة تتطلب الحل .

بدلت تيريز كثيرا من حسن النية والاجتهاد في القيام مقامها بالخدمات التي كانت تؤديها للفقراء والبؤساء عن اهل اوجلوز . طافت ببيوت المزارعين وعينت كما كانت تفعل عمته باعداد تذاكر الدواء ، ودفعت من جيبتها ثمن ذلك كله .

لم تفكر في التأسى على بقاء منزل فلميچا مقلقا . انها لم تعد تمر بذاكرتها على جان ازيفيدو ولا على اى انسان آخر في الوجود لقد اندفعت بمفردها في نفق مظلم غلبها فيه الدوار ، وها هي ذى قد وصلت الى اطك مراحل ، فيجب عليها أن تقطعه بلا تفكير كما يفعل الحيوان الأعجم يجب عليها أن تخرج من هذه الظلمات الدامسة ، من هذا الدخان الحالك ، كي تصل الى الهواء الطلق ، سريعا ، سريعا .

في اوائل ديسمبر عاود برنار الداء فاقعه عن الحركة . قام من نومه صباح أحد الأيام وبه رعشة ، وقد جمدت ساقاه وانعدم منهما الإحساس . ما الذى حدث بمسد ذلك ؟ جاء الطبيب من بوردو لتقديم مشورته ، استقدمه مسيو دى لاتراف . فحص

المريض ثم التزم الصمت طويلا . كانت تيريز ممسكة بالمصباح ومازال باليونت يذكر انها كانت شاحبة الوجه في لون غطاء السرير الابيض او اكثر منه بياضا . الدكتور بيدمي على حافة السلم ، حيث لا يصل الا ضوء ضئيل ، وقف يشرح لزميله وقد خفض من صوته بسبب وجود تيريز على مقربة تتسمع ، قال ان الصيدلى دراكى اراه تذكرتين من تذاكره بهما تزوير ظاهر . في احدهما اضافت اليد الاثيمة عبارة « شراب فاوار » وفي الاخرى اضيفت جرعات كبيرة من الكلوروفورم والديجيتالين والاكوتيت . هاتان التذكرتان جاء بهما باليون الى الصيدلية مع كثيرات غيرها . لقد شعر دراكى بالخشية بعد ان صرف هذه الكميات الكبيرة من السموم ، فهورل مسرعا في اليوم التالي الى بيدمي يستوضحه الامر ... نعم ان برنار يعرف هذا كله ، كما تعرف تيريز ايضا . جاءت عربة اسعاف ونقلته على جناح السرعة الى بوردو حيث دخل احدى العيادات ، ومنذ ذلك اليوم اخذت صحته تتحسن . بقيت تيريز بمفردها في ارجلوز ، ولكنها على الرغم من هذه الوحدة كانت تلحظ من حولها ضجة كبرى . انها كالحيوان القابع يستمع الى ضجيج كلاب الصيد تقترب منه . انها تشمر بالثعب والاجهاد كما لو كانت خارجه لتوها من سباق جنونى مرير ، كما لو كانت ، وهى على بعد خطوة من الهدف وقد مدت يدها لتلتقطه ، قد وجدت نفسها ملقاة على اديم الارض مكسورة الساقين . لقد جاء اليها ابوها في احدى الامسيات في اواخر الشتاء متضرعا اليها ان تبرىء نفسها مما حدث . مازال في الامكان انقاذ كل شيء . لقد قبل بيدمي ان يسحب شواحه — هو يقول انه لم يعد يذكر اذا ماكان قد كتب احدى هذه التذاكر كلها بيده . اما عن الاكوتيتين والكلوروفورم والديجيتالين فهو لايمكن أن يكون قد وصف منها جرعات بهذا الحجم الكبير ، ولكن مادامت لم تظهر آثار لاي منها في دم المريض .

تذكرت تيريز هذا الحديث مع ابينا بالقرب من فراش العمه كلارا . نار الخشب في المدفأة تضىء الحجره فلم يكن اى منهما يرغب في ضوء المصباح . كانت تشرح بصوت رتيب ، صوت الطفل

الذي يكرر درساً حفظه ، وقد حفظت هذا الدرس طوال لياليها التي جافاها فيها النوم) فتقول :

— لقد قابلت على الطريق رجلاً ليس من أهل أرجلوز . قال لي هذا الغريب ، اني مادمت ابعث رسولا الى داركي فربما قبلت ان اتولى عنه صرف تذكركه . انه مدين لداركي في بعض المال ولا يرغب في مواجهته في الصيدلية . . . لقد وعدني بالحضور الى المنزل لاخذ الدواء ولكنه لم يترك لي لا اسماً له ولا عنواناً .

— ابحثي لك عن رواية اخرى ، يا تيريز ، اتوسل اليك باسم العائلة ابحتي لك عن رواية اخرى اينها النسمة . .

اندفع الاب لاروك يكرر قوله هذا وتوسلاته امام ابنته في اصرار وحقق ، بينما العممة كلارا وقد انتصبت قليلاً في فراشها من غير ان تسمع شيئاً مما يدور من حديث ، ولكنها شعرت بشيء قاتل فطبع يهدد تيريز ، اخذت تردد في صوت خافت متسائلة :

— ما الذي يقوله ؟ ماذا يريدون منك ؟ لماذا يرغبون في ايدائك ؟

وجدت تيريز من القوة ما يكفي للابتسام لعمتها وضم يدها بين كفيها ، وكالطفلة الصغيرة التي تستعيد درساً في الدين راحت تلقى كلماتها :

انه رجل على الطريق . كان الظلام حالكا فلم اتبين وجهه .
لم يقل لي في اي مزرعة يقطن . في ليلة اخرى جاء واخذ الادوية .
لسوء الحظ لم يره احد ممن في البيت . .

— ٩ —

وصل القطار آخر الامر الى سانت كثير . لم يعرف تيريز احد عند نزولها من العربة . بينما ذهب باليون لتسليم التذكرة التي سافرت بها ، دارت هي حول مبنى المحطة ، ومن خلال اكوام الواح الخشب المتراصة وصلت الى الطريق حيث وقفت العربة تنتظر .

هذه العربة اصبحت الآن ماوى لها على الطريق المليء بالاخاديد والحفر . فليست تخشى من مقابلة احد . ان قصتها كلها التي

اعادت بناءها في عناء والم تنهار . لم يبق في ذهنها شيء من هذا الاعتراف الذي اعده . لا . لم يعد لديها دفاع تديده ، بل ولا سبب واحد تتذرع به . لعل اسير الامور عليها ان تصمت تماما او ان تجيب على قدر ما قد يلقي عليها من اسئلة — ما الذي يمكن ان تخشاه ؟ ستمر هذه الليلة كسائر الليالي الاخرى ، وستشرق الشمس غدا . انها على ثقة من النجاة مهما حدث من امر . وما من شيء يحتمل حدوثه اسوأ من هذه اللامبالاة من هذا الانزلال الكامل الذي يبعدنا عن العالم وعن كيانها نفسه . نعم ، انه الموت في الحياة . انها تتذوق الموت بقدر ما تذوقه امرأة على قيد الحياة .

عند منعطف الطريق عرفت عيناها ، وقد تعودتا الظلام ، تلك المزرعة التي تحوى بضعة مساكن خفيفة كانها دواب قبعت لثنام . في هذا المكان كثيرا ما ارتعبت ان خوفاً من الكلب الذي كان يندفع دائماً بين عجلات دراجتها ، وعلى مقربة من هذه المزرعة اشجار السنديان التي تظلل الوادي الصغير حيث تهب النسمة العابرة في ايام التقيظ الحارقة ، وحيث كانت الشابتان تجيئان لتتلقى هذا النسيم على وجنتيهما المتهبتين ، وغلام على دراجته تلمع أسنانه من تحت القبة الواقية من الشمس وورين الجلجل ينبعث ، وصوت الغلام يصيح :

— انظروا ! لقد رفعت يدي الاثنتين عن مقود الدراجة .
هذه الصورة المبهمة ظلت عالقة في مخيلة تيريز . انها كل ما بقي لها من ايامها الماضية لتريح فيها قلبها المضني من الاجهاد . اخذت تستعيد كلاله كلمات نظمت مقاطعها على وقع عدو الحصان الذي يجر العربة .
— لا جدوى من الحياة . . حياتي فارغة . . وحدة بلا حدود . .
قدر لا مفر منه . .

شيء واحد قد يأتي بالنجاة ، ولكن برنار لن يفعله . لو ان برنار فتح زراعته من غير ان يلقي سؤالاً . . ! لو انها استطاعت ان

— هلا اويت الى فراشك يا تيريز . انك لابدمجهدة . ستجدين في غرفتك قدحا من الحساء وبعضا من لحم الدجاج البارد .

ولكن الزوجين ظلوا واقفين في الدهليز . نظرت المرأة العجوز الى برنار وهو يفتح باب الصالون ويفسح لتيريز الطريق ثم يغيب خلفها . لو لم تكن صماء لا لتصقت باذنها الى الباب المفلق . ولكن لا داعي الى الحذر مع هذه المرأة التي تعيش حية في صمت الثبور . اطلقت العجوز الشمعة وهبطت السلم تتحسس خطاها ووضعنت عينها على خرق قفل الباب . رأت برنار يحرك اصباح من مكانه فيدا وجهه واضحا في الضوء وقد اكتسى رهبة وجدا . رأت تيريز من ظهرها جالسة وقد القت على احد القاعد بمعطقها وقبعتها وعرضت حذاءها المبتل للنار فتصاعد منه البخار . وفي لحظة من اللحظات ادارت تيريز وجهها نحو زوجها وغمرت المرأة العجوز موجة من الفرح فقد رأتها تبسم .

كانت تيريز تبسم . وفي خلال الفترة الزمنية القصيرة التي اخترقت فيها الى جانب زوجها المسافة البسيطة التي تفصل ما بين الاسطبل والمنزل اكتشفت تيريز فجأة ، بل ظنت انها اكتشفت الشيء الوحيد الذي يجب عليها ان تعمله . ان مجرد القرب من هذا الرجل قد بدد فيها كل آمالها في شرح تعرفها وفي الانصاح عن قرارة نفسها ، وما اقدرنا على تشويه الاشخاص الذين نحن اعرف الناس بهم حينما يكونون بعيدين عنا ! طوال رحلتها في القطار اجهدت عقلها بغير شعور منها تحاول ان تخلق في برنار الرجل القادر على فهمها ، او على محاولة فهمها . ولكن ما ان القت عليه نظرتها الاولى حتى بدا لها كما هو على حقيقته : انسانا لم يضع نفسه قط ولو مرة واحدة في حياته مكان غيره من بنى البشر ، انسانا يجعل ذلك الجهد اللازم للتجرد من ذاتيته ورؤية ما يراه الآخرون . هل سيفسح اليها برنار ؟ مجرد الاصفاء ؟ كان يروح ويحوي وسط الغرفة المنخفضة الرطبة التي تثن اشخاصها المتأكلة تحت وطء اقدامه . لم يكن ينظر الى زوجته وقد امتلأ رأسه بالكلمات التي اعددها واستمسك لها منذ زمن بعيد . تيريز هي الاخرى كانت على علم بما ستقول . ان ابسط الحلول هي دائما

تتكى برأسها على صدر انسان حنون .. ! لو انها استطاعت ان تبكى في احضان انسان .. !

رأت الربوة التي جلس عليها جان ازيغيدو يوما من ايام الحر الشديد . لقد خيل لها من قبل ان هناك مكانا في العالم تستطيع عواطفها ان تزدهر فيه وسط اناس يفهمونها ، وربما يقدرونها ويحبونها ! لا ، ان وحدتها الصق بها من التصاق القروح بجسم المجزوم :

— ما من احد يستطيع لي شيئا ... ما من احد يستطيع ضدني شيئا ..

— هذا هو سيدى ومعه الانسة كلارا قال باليون ذلك وشد على لجام الجواد . تقدم شبحان من العربية . هذا هو برنار ، على الرغم مما هو فيه من ضعف . قد جاء للقائهما متلهفا يريد ان يعرف نتيجة المحاكمة . انتصبت في جلستها ، وعلى البعد صاحت :

— لا وجه لاقامة الدعوى .

لم يقل برنار كلمة غير « كان الامر متوقعا » ثم اخذ يعاون العمدة كلارا على الوصول الى اعلى العربة وامسك بيده اللجام بينما نزل باليون ليعود على قدميه الى البيت . توسطت العمدة كلارا مجلس الزوجين وكان لا بد ان يصرخ كل منهما في احدى اذنيها ان الامر قد سوى تماما ، على انها لم تكن تعرف عنه في الواقع الا الشيء المبهم القليل . وكما هي عادتها اندفعت تتكلم بدون انقطاع قالت :

لقد كان هذا الاسلوب دائما اسلوب الحكام وهذه الطريقة ظريقتهم ، انها قضية دريفوس تعود من جديد ، نعم ، اكدب ثم اكدب فسيفي من كذب اثر ، نعم لقد كانوا اقوياء حقيقة هؤلاء الدساسون ولكن عيب الجمهوريين انهم لم يأخذوا دائما الحذر ، ما ان ترك هؤلاء الوحوش القذرين الفرصة حتى ينقضوا عليك ويعملوا فيك انيابهم ..

هذا الهراء اعفى الزوجين من تبادل الكلام فيما بينهما . سعدت العمدة كلارا السلم لاهثة وفي يدها شمعة مضاءة :

تلك التي لم تفكر فيها ابدا . كانت على وشك ان تقول :

— سأخفى يا برنار . لا تشغل بالك بي . سأخفى حالا اذا شئت . سأغوص في الليل . ان الغابة لا تخيفني لا ولا الظلمات . انها جميعا تعرفني . كل منا يعرف الآخر . لقد خلقت على صورة هذه المناطق القاحلة التي لا يوجد فيها كائن حي غير الطيور والخنازير البرية الجائلة الشاردة . . اني اقبل ان تلفظوني من بيتكم . احرقوا صوري جميعا . ولتجيب ابنى حتى اسمي لاصبح في نظر العائلة وكأني ما وجدت قط .
ها هي ذى تميز فتتح فيها لتقول :

— اتركني اخفى يا برنار . . .

عندما سمع برنار هذا الصوت اقبل مندفعا من آخر الغرفة وقد انتفخت اوداج وجهه وقال متلعثما :

— ماذا ؟ اتجسرين على ان تجعلي لك رايًا ؟ ان تبدي لك رغبة ؟ كفى . لا تلفظي كلمة واحدة . ليس لك الا ان تسمعي ، ان تلقي او امري . ان تعلمي وفقا لما اتخذته من قرارات قاطعة .

لم يعد مترددا في كلماته . انه يواصل العبارات التي اعدها في عناية من قبل . اخذ يرسل الالفاظ وهو متكئ على حافة المدفأة . انه يتكلم بصوت رهيب . اخرج ورقة من جيبه ونظر فيها . فارقت تيريز الرهبة وشمرت بحاجة ملحة الى الضحك . ياله من مضحك ! انه مضحك . لا قيمة لما يقوله بتلك اللهجة الذرية الحقيرة التي تضحك سامهما في كل مكان الا في سانت كلير . انها سترحل ، فلم كل هذه الماسي ؟ ليس مما بهم ابدا ان يزول هذا الغنى من عداد الاحياء . لاحظت على الورقة المرتعشة اظفاره التي لم يمن بنظافتها . لقد خلت اكمامه من الاساور فهو من هؤلاء الريفيين الذين تبدو عليهم الذرية اذا خرجوا بعيدا عن جحورهم و الذين حياتهم لاتهم رايًا ولا احدا ولا فكرا . ان المادة وحدها هي التي تجعلنا نعلق اهمية على حياة الانسان . لقد كان روبسبير على حق كما كان نابليون . . . ولينين ايضا . رآها وهي تبتسم فاشتد غضبه ورفع عقيرته بالكلام فكان فرضا عليها ان تستمع اليه وهو يقول :

— انا قابض عليك بين يدي . مالك ناصيتك . . هل تفهمين ؟
ستطيعين القرارات التي تصدرها العائلة والا . . .

— والا . . . ماذا ؟ . .

لم تعد تفكر في الظاهر بعدم الاكتراث وانما اتخذت لنفسها لهجة التحدي والسخرية . اخذت تصرخ وتقول :

— لقد سبق السياف العزل . انك شهدت في صالحى ولم يعد في وسعك ان ترجع في شهادتك والا حكم عليك بشهادة الزور .
— من الممكن ان تكتشف واقعة جديدة . اني امتلكها في مكتبي ، هذه الواقعة التي لم يكشف عنها بعد . ليس في الدعوى سقوط والله الحمد .

ارتعدت فرائصها عند هذا القول فسألته :

— ماذا تريد مني ؟

عاد الى مذكرته يفحصها ، ومضت بعض ثوان ظلت تيريز انشاءها تنصت الى الصمت الرهيب المخيم على ارجلوز . ان الساعة التي تصيح فيها الديكة مازالت بعيدة لم تحن بعد ، وما من ماء جار ينساب في تلك الصحراء وما من نسمة هواء تحرك قمم الاشجار التي لا عدد لها .

— اننى لا اصدر عن اعتبارات شخصية . انا انزوى فلا قيمة لى وانما العائلة وحدها هي التي لها حساب يحسب . ان مصالح العائلة هي وحدها التي تملى على قراراتى . لقد قبلت ، من اجل شرف العائلة ، ان اخذع عدالة بلادى . سوف يحاكمنى الله عن ذلك . . .

هذه العبارات الزنانة كانت تؤذى مسامع تيريز . كانت تود لو استطاعت ان تضرع اليه ليتكلم في بساطة .

— من المهم للعائلة ان يعتقد الناس اننا مازلنا مرتبطين ، والا يبدو في نظر الناس وكأني غير مؤمن ببراءتك . ومن جهة اخرى اريد ان احافظ على نفسي بقدر ما استطيع . .
— هل انا اخيفك يا برنار ؟ .

رد عليها بصوت خافت :

— اما عن الخوف ، فلا ، ولكنه البفض والكره

ثم اضافة الى ذلك .

– لتعمل سريعا ولنقل كل ما يلزمنا قوله مرة واحدة .
سنفادر غدا هذا البيت لنقيم الى جواره في بيت ديكويرو . لا اريد
عمتك في منزلنا . وجبات طعامك ستقدمها اليك باليونت في
غرفتك . اما باقى حجرات البيت فسيحرم عليك دخولها ، على
اني لا احظر عليك التجول في القاعة . في ايام الاحاد سنذهب معا
الى القديس الكبير في كنيسة سانت كلير . يجب ان يراك الناس في
ذراعي . وفي الخميس الاول من كل شهر سنذهب معا بالعربة الى
سوق . ب. عند ابيك كما كنا نفعل دائما من قبل .

– ومارى ؟

– سترحل مارى غدا . مع خادمتها الى سانت كلير ؛ وبعد
ذلك ستعقب بها امي الى الجنوب . سنجد لذلك سببا ننسبه
الى الاعتبارات الصحية . هل كنت تأملين حقا اننا سوف
نتركها لك ؟ يجب ان نضعها في حماية هي الاخرى . بعد وفاتي
وعندما تبلغ الحادية والعشرين من عمرها ستصبح هي صاحبة
الملكية . وبعد الزوج قد ياتي دور البنات .. ولم لا ؟

وقفت تيريز وحسبت صرخة في صدرها :

– اذن انت تعتقد اني من اجل اشجار الصنوبر ..
ياله من غبي من بين آلاف الاسباب الخفية التي دعمتها الى
ما قدمت عليه من اسباب لم يكتشف واحد منها . وها هو ذا اخترع
سببا آخر احطها وادناها جيها .

– طبعاً من اجل اشجار الصنوبر ..! وهل هناك سبب آخر؟
يكفى ان تستعرضي الاسباب جميعها واتحدك ان تجدى سببا غير
هذا .. وعلى كل حال فالامر غير ذي بال ولم يعنى شيء من ذلك
كله . لم اعد اسأل نفسي اى سؤال ، فلم يبق منك شيء يذكر .
كل مابقى هو الاسم الذي تحملينه ، واسفاه ! .. بعد بضعة اشهر
عندما يصبح الناس جميعا مقتنعين بقيام الوفاق بيننا ، وبعد
ان تتزوج ان من ديبلويم .. انت تعلمين ان آل ديبلويم يظليون
مهلة وانهم يريدون التفكير في الامر .. عندئذ سوف استطيع العودة

الى الإقامة في سانت كلير . اما انت فستبقين هنا .. ستصابين
بداء الاعصاب او باى داء آخر ..

– الجنون ... مثلاً ... ؟

– لا ... ان هذا يلحق ضررا بمارى ... ولكن الاسباب
المقبولة لن تنقصنا ... هذا هو الامر ..
قالت تيريز متململة :

– في ارجلوز .. حتى الموت ..

ثم اقتربت من النافذة ففتحتها . في تلك اللحظة شعر برنار
بلذة حقيقية . هذه المرأة التي طالما سادته واذنته ، ها هو ذا في هذه
الليلة قد قهرها . واى قهر ؟ انه يشعر بالكبرياء ينبعث من اعتداله .
لطالما قالت له مدام دي لاتراف انه قديس ، ولطالما اشادت العائلة
كلها بنبل طبعه ، انه اليوم يشعر للمرة الاولى بهذا النبل ويلمسه .
حينما بلغه ، وسط الاف الاحتمالات ، وهو في الصحة ، نيا الجريمة
التي اقترفتها تيريز لم تكلفه كثيرا من الجهد تلك الشجاعة التي
اظهرها واجتذبت له المدبح والاطراء من الجميع . ليس هناك شيء
يشتمل فيه الخطر الحقيقي بالنسبة لاولئك الذين لا قدرة لهم على
الحب .

ولما كان برنار مجردا من الحب فهو لم يشعر الا بتلك الفرحة
المرتجفة التي يشعر بها المرء بعد الافلات من الخطر الداهم المميت ،
فرحة الرجل الذي يعلم انه قد عاش سنوات طويلة من غير ان يدري
في صحبته مجنون عنيف – ولكن برنار في هذه الليلة كان مدركا
لشعوره بقوته . لقد تغلب على الحياة . وتحقق له في اعجاب
انه ما من عقبة تقف في سبيل العقل المستقيم الذي يفكر تفكيرا
سليما . حتى بعد تلك المأساة الكان على استعداد لان يؤيد القول
القائل بان المرء لايشقى ابدا ان يخطئه ان اقمى الماسى وابعدها
ائرا ، ها هو ذا قد سواها كما يسوى اية مشكلة اخرى . لن يعرف
احد شيئا تقريبا مما حدث وسينقد المظاهر البادية امام الناس
فلن يلومه بعد اليوم احد ولن يورثي لحاله احد . هل يمكن ان
يعبر الرجل بزواجه من امرأة معنوهة قاسية عندما تكون الكلمة
الاخيرة في يد الزوج المكتوب . ان في حياة العزوبة جانب مفيد

— أبوك ؟ نعم ، نحن موافقون تماما على هذا . ولكن لا يمكن
مستقبله السياسي وله حزبه وله الآراء التي يمثلها انه لا يفكر الا
في خنق الفضيحة ايا كان الثمن . اعترف لي له على الاقل بما فعله
من اجلك . اذا كان التحقيق قد طوى على عجل فانما يرجع الفضل
فيه اليه .. على انه لا بد قد اعرب لك عن رغبته الصريحة ..
اليس كذلك ؟

كف برنار عن رفع صوته وكاد ان يعود الى مزاجه الهادئ
الوديع . لم يكن ذلك لشعوره بشيء من الشفقة مهما كان ضئيلا .
ولكن تلك المرأة التي لم يكن يسمع لها انفاسا في تلك اللحظة كانت
قد هجعت والقت سلاحها اخيرا . لقد عرفت مكانها الحقيقي
وعاد كل شيء الى نظامه الرتيب . ان اي رجل آخر غير برنار ما كان
ليظل ساكنا امام كل هذا النجاح والتوفيق . لقد كان فخورا بما
حققه من تقويم هذا الاعوجاج : كل منا قد يخطيء ولقد اخطأ
الجميع فيما يتعلق بـ تيريز . حتى مدام دي لا تراف نفسها وهي
الخبيثة بالتعرف على طباع كل الذين يعيشون معها . ذلك ان
الناس الآن لم يعودوا يستمسكون كثيرا بالمبادئ . انهم لا يشعرون
بالخطر الكامن في نوع التنشئة التي نشئت عليها تيريز . انها وحش
ضار ، هذا لا شك فيه . ولكن ، ايا كان الحال ، لو انها كانت مؤمنة
بالله .. ان الخوف هو اول مراحل الحكمة . هذا هو ما كان
يدور بخلد برنار وبتفكيره . كان يقول لنفسه ايضا ان القرية
كلها التي كانت تتحرق شوقا للشمامسة بهم والتلذذ بما اصابهم من
عارسوف تشعر بخيبة الأمل في كل يوم من ايام الاخاد عند رؤية الأسرة
على ما هي عليه من مظهر الوفاق والترابط . انه في قرارة نفسه
ود لو ان يوم الاحد اقبل سريعا ليري ما تكون عليه وجوه القوم .
ولن تفقد العدالة في ذلك شيئا .

امسك المصباح بيده ورفع فضاء بنوره ظهر تيريز !
— الا تصعدين بعد ؟

لم يبد عليها انها سمعت كلماته . فخرج هو من الغرفة وتركها
في الظلام . عثر على الصمة كلارا مكومة على اولى درجات السلم .
عندما نظرت اليه العجوز ابتسم لها في تكلف واخذ يدرأها بساعدها

خصوصا وقد زاد عنده باقتراب الموت حبه الكبير للتملك وللصيد
ولركوب السيارة ولكل مايؤكل وما يشرب — وللحياة بوجه عام .

ظلت تيريز واقفة امام النافذة — كانت ترى جانبا من حصياء
الطريق البيضاء وتشم رائحة ازهار الكريزانتيم التي يحميها سياج
من عائلة القطمان ، وعلى البعد كانت تقوم اشجار البلوط السوداء
تنشر ستارها على الصنوبر فتخفيه كأنه جيش من الاعداء لا يرى
ولكنه قريب . كانت تيريز تعرف ان هذه الاشجار تحيط بالبيت
من كل جانب حراسا اشداء . كانت تعلم ان هؤلاء الحراس الذين
تسمع على البعد شكواهم المكتوبة سيرونها وهي تدبل طوال فصول
الشتاء القارصة ثم يرونها وهي تحترق طوال فصول الصيف
المنتهية . سيصبحون ويمسون شهداء على اختناقها القاسي
البعطى .

اغلقت النافذة واقتربت من برنار :

— هل تعتقد انك قادر على استبقائي قسرا عني ؟

— انت وما تشائين .. ولكن اعلمي جيدا .. لن تخرجي من
هنا الا وانت مقيدة اليدين .

— يا للمبالغة ! .. انني ادرى بك .. لا تتظاهر بالقسوة فهي
ليست من طبيعتك . لن تعرض العائلة لمثل هذا العار . اني مطمئنة
تماما .

عندئذ اكتسب برنار ثوب الرجل العاقل الرزين وقال لها شارحا
ان قرارها هو بمثابة اعتراف منها بالجرم . وفي هذه الحالة لن
تنجو العائلة من العار الا بتر العضو المصاب منها ، بالقائه بعيدا ،
وبانكاره علنا امام الناس والتبرؤ منه . ثم قال :

— بل ان هذا الحل هو الذي ارادت امي في اول الامر ان
تستمسك به . تصوري ، لقد اوشك بنا الامر ان نترك العدالة
تاخذ مجراها .. ولولا ما يتعلق بان وبماري .. ولكن مازال في
الامر متسع .. لا تتعجلي الرد .. انك انكرك الى غد ..

قالت تيريز بصوت مكبوت :
— سيبقى لي ابي .

تلك العائلة ، اذن فليقبض عليها هي .. انهم على حق اذ يعتبرونها وحشا ضاربا ، ولكنها هي الاخرى تعتبرهم وحوشا كواسر . انهم سيعملون في بطنه وتؤدة على افئنانها من غير ان يظهر من ذلك شيء في الخارج

— منذ الآن سوف يسير ضدى هذا الجهاز العائلى الجبار ، وما ذلك الا لاني لم اعرف كيف لوقف حركته ولم استطع الفرار من برائته في الوقت المناسب . لا جدوى في البحث عن علة اخرى غير هذه العلة : لقد كانوا هم على ما هم عليه ، وكنت انا على ما انا عليه ... هذا الجهد الذي ظلت ابذله طوال سنتين او اقل قليلا في التخفى وستر ملامحي والتظاهر بما يختلف عن حقيقتي ... هناك في اعتقادي اناس اخرون ، هم على ما شكنتي ، يشابرون على بذله الى ان يدركهم الموت . لعلمهم وجدوا في الاعتماد عونا لهم على ذلك . ان العادة مخدر قوى على المتاعب . لقد تبلدوا فناموا قانعين في احضان الاسرة تلك الام القوية العاتية . اما انا ... اما انا .. فلا ...

نهضت تيريز من جلستها وفتحت النافذة ففقرتها برودة الفجر . لماذا لاتهرب من هذا السجن ؟ ما عليها الا ان تقفز من تلك النافذة . هل سوف يلحقون بها ؟ ويضعونها مرة ثانية امام القضاء ؟ انها فرصة متاحة لها على ما فيها من مجازفة . كل احتمال قد يكون الا هذا الاحتضار الذي لا نهاية له . ها هي ذى تيريز تسحب مقعدا وتسند الى النافذة . ولكنها خالية الوفاض لا تملك مالا . ان الالف من اشجار الصنوبر التي تملكها لا تغنيها قليلا . فليست عن غير طريق بزوار تستطيع الحصول على فلس واحد . هل تندفع هائمة على وجهها وسط اراضى اللاند المتأحلة ؟ كما فعل من قبل واجير ذلك القاتل المطارد الذي طالما احسب نحوه تيريز بالمعطف ايام طفولتها . انها مازالت تذكر الجنود الذين كانوا يطاردونه وقد سقتهم باليونت التنبيد في مطبخ ارجلوز . كذلك تذكر ان كلب ديكويرو هو الذي كشف عن آثار الرجل البائس الطريد .. لقد عشروا عليه وهو يوشك ان يموت جوعا وسط الاحراش . لقد آتته تيريز مكيبلا بالحدديد فوق عربة ملاي بالمش ، ثم قيل لها

على النهوض . ولكنها قاومت كما يقاوم الكلب العجوز عندما يراد ابعاده عن فراش سيده المحتضر — وضع بزوار المصباح على الارض واقترب بقمه من اذن العمة كلارا يصرخ فيها ، ان تيريز تشعر الآن بالراحة ولكنها تريد ان تبقى بمفردها لحظة قبل ان تذهب لتنام . قال لها :

— تعلمين ان هذه احدى نزواتها .
نعم ، ان العمة كلارا تعرف ذلك ، ان حفظها السييء يريد دائما الا تدخل على تيريز الا في الاوقات التي تريد فيها المرأة الشابة ان تبقى بمفردها . وكثيرا ماكانت العجوز تشعر بمجرد ان تفتح الباب على تيريز ان وجودها قد اصبح غير مرغوب فيه .
انتصبت العمة كلارا في عناء وصعدت مستندة الى ذراع بزوار الى الشرفة التي تشتملها فوق الصالون . دخل خلفها بزوار واعتم باشعال شمعتها فوق المتضدة ثم قبلها في جبهتها وانصرف . لم ترفع العمة عينها عن بزوار ، فما من شيء على وجوه الرجال لم تدركه بسمها الا وادركته بحسها وفطنتها . تركت لبزوار مايكفي من الوقت لدخول غرفته ، ثم عادت في سكوت تفتح الباب .. انه مازال واقفا في الردهة متكئا على سياج السلم وقد انشغل بلف سيجارة . اسرعت عائدة وقد تخلخلت ساقتها وتقطعت انفاسها حتى انها لم تقو على خلع ملابسها فارتمت في فراشها وظلت مستلقية مفتحة العينين .

— ١٠ —

في الصالون . تيريز جالسة في الظلام . بصيص من النار ما زال حيا بين رمد المدفاة . الان وقد فات الاوان اخذت تيريز من ذاكرتها اجزاء من ذلك الاعتراف الذي قضت في اعداده طوال رحلة السفر . ما الذي يدعوها لان تلوم نفسها على عدم الاستفادة من هذا الاعتراف ؟ هذه القصة في الواقع ، التي بنت تفاصيلها بحنكة ومهارة ، لا يربطها بالحقيقة والواقع اى رباط . تلك الاهمية التي حلا لها ان تصفيها الى احاديث الشباب ازيفيدو ! .. يالها من حماة ! .. هل في ذلك مايقام له ادنى وزن ؟ لا ، لا ، لقد استجابت الى دون عميق قانون قاس لايرجم . لقد عجزت عن القضاء على

فيما بعد انه مات على ظهر السفينة قبل ان يصل الى المنفى في
كابين السفينة .. المنفى .. اليسوا قادرين على ان يسلموها
الى العدالة كما قالوا ؟ هذا الدليل الذي يزعم برنار انه في يده ..
كذب لاشك .. مالم يكن قد عثر في جيب المعطف القديم على تلك
اللقافة المحتوية على السم .

عزمت تيريز على التأكد من الامر . اندفعت تتحسس مواقع
اقدامها على السلم . كلما ارتقت صاعدة ازدادت الرؤية بسبب
ضوء الفجر الذي بدأ ينير الزجاج العلوي .. هذه هي على ردهة
الحاصل الأعلى ، تلك الخزانة التي علقت في جوفها الملابس القديمة.
انها ملابس عتيقة بالية ، ولكنها لا تعطي لاحد من المساكين لانها
تنفع في موسم الصيد . المعطف الباهت في مكانه بجيبه العميق .
كثيرا ما كانت العمة كلارا تدس في هذا الجيب اشغال الابرّة التي
كانت تحكمها في الزمن الماضي عندما كانت هي الأخرى تقبع في
المخابئ المنعزلة تنتظر مرور اسراب الحمام البري . مدت تيريز
يدها الى الجيب وأخرجت منه اللقافة المختومة بالشمع :

كلورفورم : ٣٠ جراما - اكونيتين مسحوق رقم ٢٠ -
ديجيتالين محلول : ٢٠ جراما .

أعدت تيريز قراءة هذه الكلمات وهذه الارقام . هذا هو الموت
انها كانت دائما تخاف من الموت . المهم في الامر الا ينظر الانسان
الى الموت مواجهة . ويكفي ان يعد مايلزم لذلك من اعمال : ان
يصب الماء وان يذيب فيه المسحوق وان يشرب ذلك دفعة واحدة
وان يستلقي على الفراش وان يفاقد عينيه . هذا كل ما في الامر ، ولا
داعي للبحث عما وراء ذلك . لماذا الخوف من هذا الرقاد ؟ اليس
شأنه كشأن أي رقاد آخر ؟ انها ترتجف ولكن ذلك من برودة الصباح
المبكر . هبطت تيريز السلم وتوقفت امام الحجرّة التي تنام فيها
ماری . شخيرة الخادمة ينبعث منها كخوار الدواب . دفعت تيريز
الباب فرأت الضوء الباهت يتسلل من خلال النافذة . السرير
الحديدي الصغير يشع بياضا وسط العتمة . قضتان دقيقتان
موضوعتان على القفء وراس صغير يفوض في الوسادة اللينة .

عرفت تيريز تلك الاذن الكبيرة : انها اذنها هي . ان الناس لعلى
حق : هذه صورة منها هامده نائمة .

— اني ذاهبة .. ولكن هذه القطعة منى ستبقى ومعها ذلك
القدر كله الذي سوف ينفذ حتى آخره من غير ان تقلت منه نبرة
واحدة .

هل هي الطباع ام الميول ام هل هي قوانين الدم التي لا تحيد
ولا تتحول ؟ لقد قرأت تيريز ان هناك من البؤساء الذين قتلهم
اليأس من حمل أطفالهم الى الموت معهم ، وكان العقلاء من الناس
يلقون بالجريدة جانبا وهم يتساءلون :

— كيف يمكن لمثل هذه الاشياء ان تحدث ؟ ..

اما تيريز فهي وحش ضار ، ولذلك شعرت في قرارة نفسها
ان هذا شيء جائز الوقوع وانه يكفي لحدوثه ان .. ركعت تيريز
الى جوار الفراش الصغير وبشفتها مست اليد الرقيقة المطروحة
ادعسها شيء حار نبع من أعماق كيانها البعيدة وطرقت الى عينيها
وسال حارا كالجمر على خديها : بضع عبرات بائسة ! .. هي
التي لم تبك ابدا ! .. !

نهضت تيريز والقّت نظرة أخرى على الطفلة النائمة ثم ذهبت
الى حجرتها . ملأت كوبا بالماء وازالت الشمع عن اللقافة ثم ترددت
بين اللعب الثلاث المحتوية على السم .

كانت النافذة مفتوحة . صياح الديكة كأنه يمزق الضباب
الذي احتجزت منه اشجار الصنوبر بين فروعها كتلا شفافة لامعة .
الحقول يتمرها الفجر فتبدو مخضلة يانعة . كيف يمكن ترك هذا
النور كله ؟ ماهو الموت ؟ لا احد يدرى ماهو الموت . تيريز ليست
على ثقة تامة من الفناء . انها لا تدرى عن يقين هل في عالم الفناء
اناس يعيشون ؟ تيريز تكره لنفسها الشعور بهذه الرهبة ، وهي
التي لم تردد من قبل في القذف بالآخرين الى جوف الفناء ،
ها هي الآن ترفضه وتثور عليه . كم يخجلها هذا الجبن من
نفسها اذى كان موجودا هذا الكائن الأعلى ! .

تذكرت تيريز في لحظة سريعة يوم عيد الفجران ، وذلك الرجل
الوحيد الفارق في المسوح الذهبية ، وذلك الشيء الذي يحمله بين
يديه وشفتيه المتحركتين بالصلاوات ومظهر الأمل والحنون الرسادي

كانت تميز في ذلك الوقت تحدث من قلبها تلك التي لم يعرف لها وجود:

- كيف يمكن الحياة لجثة هامدة بين يدي أولئك الذين يكرهونها .. ! كيف يمكن الا تحاول التطلع الى ما وراء ذلك .. ! في الجنائز احتلت تميز مكانها وقامت بدورها . وفي يوم الأحد التالي دخلت الى الكنيسة مع برنار الذي بدلا من ان يتسلل من جوانب الساحة كما هي عادته اخترق دهبها الاوسط في تمسك وتظاهر . لم ترفع تميز عن وجهها قناعها الاسود الرقيق الا بعد ان جلست على مقعدها بين حمايتها وزوجها . عمود منتصب يحجبها عن نظرات الحاضرين وليس امامها شيء غير هيكل الكنيسة ها هي ذى محاضرة من كل جانب ، الجمهور من خلفها وبرنار الى يمينها ومدام دي لاتراف الى يسارها وليس امامها الا هذا الطريق الوحيد .. الطريق السالك المفتوح .. كالطبية امام الثور الهائج المندفع من وسط الظلام .. هذا الفضاء الفارغ حيث يقف رجل مسربل بالسواد بين طفلين وقد ازاح ذراعيه قليلا وأخذ يتمتم بكلام غير مسموع .

- ١١ -

في المساء عاد برنار وتميز الى ارجلوز في بيت ديكيورو الذي ظل منذ سنوات في حكم الميجور . المدايق يتجمع فيها الدخان والنوافذ لا تطلق باحكام والرياح تمر مصفرة من تحت الابواب التي قرضها الفئران . ولكن الخريف كان في تلك السنة رحيما فلم تشك تميز كثيرا من هذه المضايقات . عمليات الصيد تحتجز برنار كل يوم حتى المساء . وما ان يعود الى البيت حتى يذهب الى المطبخ ويتناول عشاءه مع باليون وزوجته ، بينما تميز في غرفتها تستمع الى صوت الملائق والى اصوات الاكلين الرتيبة . في الليل يقبل مسرعا في أكتوبر . الكتب القليلة التي استقدمتها من البيوت المجاورة سبق لها ان قرأتها فهي لا قيمة لها . برنار لم يستجب لطلبها بالحصول على بعض كتب من بورديو . لم يسمح لها الا بتجديد مؤنتها من السجائر فقط . كانت توقد النار في المدفأة ولكن الدخان المحمل بعصارات الخشب والمرتب من المدفأة يحرق عينيها وبلهب

- ٩٩ -

عليه .. مادام هذا الكائن الا على موجودا فليزح تلك اليد الآلمة قبل المبر تلك النفس البائسة العمياء فليرض على الاقل ان يقبل في حبه ورحمته ذلك الوحش الآدمي الذي هو خالقه . صبت تميز في الماء شيئا من الكلوروفورم ، فهي مادة ليس اسمها غريب عليها ، ولذا كانت اقل ارهايا لها فهي توحى بصورة من صور النوم . عليها ان تعجل ، فقد اخذ اهل المنزل يستيقظون ! هاهي ذى الخادمة باليونت قد فتحت عوارض الناظفة في غرفة العمه كلارا . ماذا دهاها حتى تصرخ على هذا النحو للمرأة العماء ؟ اليس ، بما توفر لها من عادة ، تستطيع ان تفاهم معها على خير وجه عن طريق تحريك الشفاة وحدها ؟ اصوات ابواب تعلق وتفتح وخطوات سريعة متلاحقة هنا وهناك . اسرعت تميز بالقاء رداء على المتضدة تخفي تحته طب السموم . دخلت باليونت عليها مولولة ماتت آنستي ! .. لقد وجدتها بلا حراك على فراشها بملابسها كاملة .. لقد انتشرت البرودة في جسمها ..

* * *

على الرغم من كل شيء وضعوا مسبحة بين اصابع الزنديقة المعجوز ووضعوا صليبا على صدرها . المزارعون يدخلون ويركعون ثم ينصرفون بعد ان يلقوا نظرة طويلة على وجه تميز الواقعة الى رجان الفراش الذي به جثة المعجوز . انعمهم يقولون :
- من يدري ؟ ربما كانت هي التي فعلت هذه القفلة ايضا .. ! ذهب برنار الى سانت كلير لابلاغ النبأ الى العائلة ولعمل الترتيبات اللازمة . ربما قال في نفسه : لقد جاء هذا الحادث في موعده لتحويل الانتباه عن الموضوع الاخر الخطير .. نظرت تميز الى هذه الجثة .. هذه الجثة العتيقة المخلصة التي ركمت تحت قدميها في الوقت الذي كانت على وشك ان تلقى بنفسها بين احضان الموت . هل هي الصدقة العمياء ؟ ام هل هو التوارد العجيب في الخواطر ؟ لو ان انسانا حدثها في تلك اللحظة عن وجود ارادة ذاتية ، لهزت كتفيها استنكارا . يقول الناس بعضهم لبعض : هل رايتموها ؟ انها لا تتظاهر .. حتى مجرد التظاهر بالكاء ..

- ٩٨ -

حلقتها المصاب من الطبايق . ما ان تذهب باليونت ببقايا الطعام القليل حتى تسارع تيريز الى اطفاء المصباح والذهاب الى الفراش . كم من الساعات ظلت هكذا ممددة قبل ان ياتي النوم لانتقادها ! .. الصمت المخيم على ارجلوز يمنعها من النوم . انها تفضل عليه ليالي الزوايع والرياح . هذه الشكوى اللانهائية المنبعثة من قمم الاشجار تحمل اليها عذوبة صوت الادميين . استسلمت تيريز لهذه الهدفة فقد كانت الليالي المضطربة العاصفة تاتيها بالثوم خيرا من الليالي الهادئة الصامتة .

لم تكن تلك الامسيات الطويلة الحزينة لتمنع تيريز من العودة الى المنزل قبل وقت الغروب احيانا . فربما وقع لها ان ذات احدى الامهات وقد امسكت فجأة بيد صغيرها عند مرور تيريز واسرعت به تدفقه دفعا الى داخل بيتها . وربما صادفها احد الرعاة فحيتته باسمه الذي تعرفه من قبل ولم يرد لها تحيتها .. ماكان اسمها لو انها ضاعت وغرقت وسط خضم الناس في بلدة كثيرة السكان ! . لم يعد يوجد في ارجلوز راع واحد الا وعرف قصتها . انهم ينسبون اليها حتى موت العمدة كلارا . لم يكن في استطاعتها ان تخطو عتبة اى بيت ، وكان عليها ان تخرج من بيتها متسللة من خلال باب خلفى وان تسير بعيدا عن بيوت القرية . لولا تلك العريبات المكونة على البعد لا استطاعت ان تلقى بنفسها في الطريق الجانبى حيث كانت تهول مسرعة وقد امتلأ قلبها وجلا كالغريسة المطاردة وتستلقى في الاحراش هربا الى ان تمر احدى الدراجات المتسكعة .

ايام الاحاد في كنيسة سانت كلير لم تكن تيريز تشعر بتلك الرهبة ولكن بشيء من الراحة والانفراج . يبدو ان رأى الناس في القرية قد بدأ يتحول قليلا الى جانبها . لم تكن تدرى ان اباه وان آل دى لانراف قد داوبا على تصويرها في هيئة الضحية البريئة التى اصابتها ضربة قاتلة .

في الليلة الاخيرة من اكتوبر هبت ريح عاتية قادمة من المحيط افضلت تهرق قمم الاشجار فى عنف ولزمن طويل .. استسلمت تيريز الى غفوة تشبه النوم وهى منتبهة الى اصوات الزوبعة الصاخبة ،

- 1.0 -

في الصباح الباكر لم تكن تلك الاصوات هى التى ايقظتها . فتحت النافذة ولكن الحجره ظلت معتمة . المطر الرفيع الكثيف يتهمر ويسيل على قرميد البيوت وعلى اوراق البلوط النليظة . لم يقادر برنار البيت في ذلك اليوم . اندفعت تيريز تدخن وتلقى بسيجارتها . ذهبت الى ردهة السلم فسمعت زوجها يتنقل من غرفة الى غرفة في الطابق الاسفل . رائحة غليونه وصلت الى داخل غرفتها حيث تملبت على رائحة سجاريها الخفيفة فعرفت فيها حياتها السابقة هذا هو اليوم الاول من فعل المطر والزوايع والاعاصير . كم قدر لها ان تعيش الى جانب تلك المدفأة التى تموت فيها النار ؟ جوانب الغرفة تساقطت فيها اوراق الغلاء من فعل الرطوبة وعلى حوائطها مازالت ترى آثار الصور القديمة التى رسمها برنار من مكانها ليزين بها الصالون فى سانت كلير كما ترى المسامير الصدئة التى لم تصد تحمل شيئا . على المدفأة فى داخل اطار مثلث الاجزاء من الصدف الرخيص ، تتجاوز بعض الصور الفوتوغرافية الباهتة كما لو كان الموتى المثلون فيها قد ماتوا هنا للمرة الثانية . هذا هو ابو برنار وجدته . وهذا هو برنار نفسه واضعا على رأسه قلنسوة البحارين عليها ان تعيش فى تلك الغرفة هذا اليوم بطوله وبعده اسابيع وبعده الاسابيع شهورا ..

عندما اقبل المساء لم تعد تيريز تطيق صبورا . فتحت الباب ببطء ثم هبطت السلم ودخلت الى المطبخ . رأت برنار جالسا على مقعد واطء امام المدفأة واذا به فجأة ينتصب واقفا . توقف باليون عن تنظيف البندقية التى كانت فى يده ، اما زوجته باليون فتركت شغل الابرة يسقط امامها على الارض . نظر اليها ثلاثتهم نظرة جعلتها تسأل :

هل انا اخيفكم ؟

- ان دخول المطبخ محظور عليك .. الا تعلمين ذلك ؟ ..

لم تنبس بيوت شفه وكرت راجعة نحو الباب . ولكن برنار استدعاها وقال لها:

- مادمت اراك الآن .. اود ان اخبرك ان وجودى هنا لم يعد له داع . لقد استظفنا ان نخلق فى سانت كلير

عليك . انهم هناك يصدقون او يتظاهرون بالتصديق انك مصابة بشيء خفيف من مرض الاعصاب ، وانك تفضلين ان تعيشي بمفردك على ان احضر مرات عديدة لرؤيتك . منذ اليوم اعفك من حضور القداس في الكنيسة .

تمتعت قائلة انه ليس مما يضايقها بالمرة ان تذهب الى القداس ولكنه اجابها ان المهم ليس توفير اسباب السرور لها . بذلك تحقق له العرض الذي يبتغيه فاضاف قائلا :

— وما دام القداس لا يعنى شيئاً بالنسبة لك ... فتحت فمها تحاول الكلام ، ولكنها ظلت صامتة . اكد عليها رغبته في الا تنسرب منها كلمة او حركة قد تفسد هذا النجاح الذي امكن الوصول اليه بمثل هذه السرعة ، وعلى غير ما كان منتظرا . سألت عن صحة ماري فقال لها انها بخير وانها سترحل في اليوم التالي مع آن ومدام دي لاتراف الى بوليو . بل انه هو نفسه سيذهب الى تلك البلدة ليقضى فيها بضعة اسابيع ، شهرين على الاكثر . بعد ذلك فتح الباب وافسح الطريق امام تيريز . في الصباح الباكر المعتم سمعت باليون بعد العربية كما سمعت صوت برنار لبرهة بعدها ، ووصل الى اذنها سهيل الجواد ثم كبكية العربية وهي تبتمد . لاشيء بعد ذلك غير المطر المنهمر فوق القرميد وعلى التوافد الملوثة بالضباب وعلى الحقول الخاوية وعلى مئات الكيلو مترات من اراضى اللاند والمستنقعات وعلى الكثبان الرملية المتحركة وعلى المحيط البعيد .

ظلت تيريز تشعل السيجارة من السيجارة التي انتهت من تدخينها ، وحوالي الساعة الرابعة ارتدت معطفاً من الجلود انديست تحت المطر المساقط ، ولكنها سرعان ماداخلها الرعب من الليل البهيم فمادت الى حجرتها . كانت النار قد خمدت في المدفأة ، واذ اخذتها رعدة البرد ذهبت الى فراشها . في الساعة السابعة صعدت اليها باليونت بشيء من البيض التلي على شريحة من لحم الخنزير ولكنها رفضت ان تتناول منها شيئاً ولطول ما اكلت من هذا اللحم اصبحت تنفر من طعمه ومذاقه . لا شيء غير

الاطعمة المحفوظة ولحم الخنزير الجاف ! . قالت باليونت ان ليس لديها ماتقدمه لها خيرا من هذا ، وان برنار قد منع عنها الدواجن . شكت باليونت من ان تيريز تضطرها الى الصمود والنزول من غير فائدة ، وهي التي تشكو من مرض في القلب ومن انتفاخ في الساقين . قالت ان هذا العمل كثير عليها ومرهق لها ولولا خاطر السيد برنار لما استمرت في القيام به .

انتابت تيريز الحمى في تلك الليلة . ولكن الحمى لم تؤثر على ذهنها الواعي فاخذت تتخيل حياتها في باريس . رات نفسها في ذلك المطعم القائم وسط الغابة والذي ذهبت اليه من قبل ولكنها هذه المرة ليست مع برنار ، وانما مع جان ازيفيدو وسرب من الشابات . ها هي ذي تضع علبة سجائره على المنضدة وتشعل منها واحدة فاخرة وتتعلق تتحدث عن خليجات قلبها واسرارها بينم الموسيقى تعزف الأنغام المكتومة الخافتة . انها تبهر بحدتها فربما من الوجوه المنصتة لها من غير ان تثير فيها الدهشة . ها هي ذي امرأة تقول : — انك مثلي .. لقد احسست بذلك انا ايضا .

وهذا رجل من رجال الابد يتنحى بها ناحية ويسر في اذنها : — يجدر بك ان تكتبي كل ما يدور في داخلك ونحن على استعداد لنشر هذه المذكرات عن امرأة من نساء اليوم في مجلتنا .

وهذا شاب موله بها بعيدا في سيارته الى حيث تقيم . ان السيارة تدرج بها صاعدة في طريق الغابة . لا تشعر ناي وجيل وانما هي تستمتع بوجود هذا المسم الشاب المضطرب جالسا الى يسارها . انها تقول له :

- لا ، ليس هذا المساء . اني اتعشى الليلة مع صديعة لي .
- فيجيبها :
- ومساء غد فتقول :
- ... ولا مساء غد
- فرد عليها يائسا :
- هكذا .. امسياتك كلها مشغولة ؟ ..
- فتقول في دلال :
- تقريبا .. يعني .. ابدا ..

ظلما عن الليل . في تلك الايام التي تعتبر اقصر ايام السنة تعمل الامطار الكثيفة على توحيد الزمن وعلى ادماج الساعات بعضها ببعض . في تلك الايام تتابع الشمس طلوعها وغروبها في صمت وتيب ثقيل . لم تكن لتبريز رغبة في النوم فكانت احلامها لذلك اكثر دقة ووضوحا . اخذت تبحث في ماضيها عن الوجوه التي نسيتها وعن الافواه التي احبتها عن بعد وعن الاجساد المهيمة التي وصلت ماينها وبين جسدها ، المقابلات العارضة واحلام اليقظة الليلية . كانت تخترع لنفسها سعادة لا وجود لها وهناء وهميا كانت تخلق لنفسها من لاشء فراما مستحيلا .

بعد بضعة ايام قالت باليونت لزوجها باليون :

— انها لانفادر فراشها ابدا وتترك طعامها وخبزها لا تمسه . على اني اقسم لك انها تفرغ زجاجتها الى آخرها . مهما اعطيتها من الشراب ، هذه الشقية ، شربته وطلبت المزيد . وبعد ذلك احترقت اغطية الفراش بسجارتها . سينتهي بها الامر حتما الى احداث حريق . انها تدخن الى حد ان اصيحت اصابعها واطرافها صفراء كما لو كانت قد غمستها في الكرم . يا للخسارة . . ! تلك الاغطية التي نسجت باليد خصيصا . . ! انتظري متى ان ابدلها لك كثيرا . .

قالت الخادم العجوز ايضا انها مستعدة دائما لتنظيف الغرفة وترتيب الفراش فهي مارفضت ذلك قط ، ولكنها تلك الكسولة التي لا تريد الخروج من بين الاغطية . لم تعد باليونت تجد ضرورة لحمل اوعية الماء الساخن في كل صباح والصعود بها مع ماني ساقياها من انتفاخ واوجاع فقد كانت تجدها كما هي في المساء عند باب الغرفة حيث تركتها من قبل .

اخذت تبريز تنفصل بمخيلتها عن هذا الجسد المجهول الذي اخترعته من اجل سعادتها . لقد سئمت هذا الهناء وشعرت بالاشبع من هذا السرور الوهمي فراحت تؤلف في ذهنها وسيلة اخرى للانطلاق . هاهم اناس كثيرون راكعون حول فراشها الحقيقين وها هو ذا طفل من ارجلوز — واحد من اولئك الاطفال الذين كانوا يفرون عند اقترابها منهم — محمولا على الايدي يدخلونه عليها في فرقتها وهو في النزح الاخير . ما ان تضع تبريز عليه يدها التي

تخيلت ان هنالك شخصا في حياتها هو الذي جعل كل شيء اخر في الدنيا لا معنى له ، شخصا لا يعرفه احد ممن يحيطون بها ، انسانا متواضعا مجهولا تعلق به وجودها . ان تبريز لا تعيش الا في ضوء تلك الشمس التي لا تراها الا عيناها ولا يشعر بحرارتها الا بجسدها وجده . هاهي ذى باريس تطن وتصخب كما تفعل الرياح في اشجار الصنوبر . هذا الجسد المتصق بجسدها خفيفا لطيفا الى اقصى حد يحول بينها وبين التنفس المنطلق ، انها تود لو ضاعت منها انفاسها ولا تتعد عنه . ارادت تبريز في حلمها ان تحتضن هذا العليف الذي صوره لها الخيال فمدت يدها اليمنى تضغط بها على كتفها اليسرى وانقرزت اظافر يدها اليسرى في كتفها اليمنى . قامت من فراشها حافية القدمين وفتحت النافذة . ليس في الظلام برودة ولكن هل يمكن ان تتصور ان المطر قد يكف عن السقوط في يوم من الايام ؟ ستمطر الدنيا حتى اليوم الذي ينتهي فيه العالم . . لو كان معاشيء من النقود لفر الى باريس ولدهبت مباشرة الى جان ازيفيدو واسلمت اليه زمامها . سيجد لها عملا . هل يتاح لها ان تصنع امرأة بمفردها في باريس تكسب عيشها بنفسها ولا تعتمد على احد . . ؟ هل يتاح لها ان تتجرد من روابط الأسرة وان تعمد الى قلبها وحده بمهمة اختيار ذوى قرباها ، ليس اولئك الذين تربطها بهم رابطة الدم ، وانما الذين تربطها بهم رابطة القلب ورابطة الجسد ايضا ؟ . هل يتاح لها ان تتعرف على اربطة الحقيقين مهما كانوا قلة ، ومهما كانوا مشتتين . . ؟ فلها اليوم في نهاية الامر والنافذة مفتوحة . لم تلبث ان ايقظتها برودة الفجر فوجدت اسنانها تصطك وقد هربت منها القدرة على الوقوف واغلاق النافذة بل وعلى مد ذراعها وجذب الفطاء عليها .

لم تنادر فراشها في ذلك اليوم ولم تفتسل . اكتفت بتناول بضع لقيمات من الطعام ويشرب شيء من القهوة لكي تستطيع التدخين فقد اصيحت معدتها لاتتحمل الدخان على فراغ . حاولت ان تستعيد التخيلات التي راودتها في الليل ، على ان ارجلوز قد خلت تماما من كل صوت واصبحت فيها فترة مابعد الظلم لاتنقل

كسائها النيكوتين اصفرارا الا وينهض الطفل سليما معافا . وراحت بعد ذلك تؤلف لنفسها خيالات أكثر تواضعا من هذا . ها هي ذى تعد لنفسها بيتا على شاطئ البحر . انها ترى في حلمها الحديقة والشرفة وتنظم الحجرات وتختر كل قطعة من قطع الاثاث ، وتبحث عن المكان المناسب لتضع فيه مالدتها من اثاث في سانت كلير . انها تناقش نفسها في اختيار القماش والالوان . لايلبث هذا الزخرف ان يتلاشى وان يتوه في الضباب فلا يبقى منه غير عريشة فوق مقعد في مواجهة البحر . هاهي ذى تميزر جالسة تسند رأسها الى كتف . هاهي ذى تنهض عند سماع الجرس المؤذن بحلول وقت الطعام . انها تسير تحت الخميطة المظلمة . شخص ما يسير الى جوارها وفجأة يحتضنها بين ذراعيه ويجذبها اليه . تخيلت تميزر ان القبلة قادرة على وقف سريان الزمن وان في الحب لحظات لا نهاية لها . انها تتخيل ذلك ولن تعرفه أبدا . ها هو ذا المنزل الابيض الناصع يبدو ثائية امام نظرها وهاهي ذى البئر وقد اخذت رافعته تئن وتصرخ . ازهار الهليوتروب التدية تملأ الفراغ بعبيقتها . سوف يكون العشاء فترة هجوع وراحة قبل العشاء المنتظر في المساء والليل ، هذا العشاء الذي لايمكن النظر اليه مواجهة لما فيه من قوة تطفي على مافي القلب من قوى وانقال . هذا هو الحب الذي حرمت منه تميزر أكثر مما حرم منه اي مخلوق آخر . لقد استولى عليها هذا الحب ونفذ الى قرارة كيانها كله . سمعت تميزر او كادت ، وهي في غمرة هذا الشعور اللذيد ، صراخ باليونت . ماذا تقول هذه المعجوز الشمطاء ؟ ان مسيو برنار سوف يصل من الجنوب في يوم او في آخر من غير اخطار سابق .

— فما الذي سوف يقوله عندما يرى تلك الحجره ؟ انها حقا كحظيرة الخنازير .

جلست تميزر على حافة فراشها ونظرت في رعب الى ساقبها الهيكليتين . ان قدمها تبدوان ظمعتين . لفتها باليونت في رداء كثيف ودفعها الى أحد المقاعد . . بحثت بالقرب منها عن سجائرها ولكن يدها سقطت اعياء في الفضاء . شعاع بارد من اشعة الشمس يدخل من فجوة النافذة المفتوحة . باليونت تتحرك جاهده وفي يدها

مكنسة . انها تلهث وتتمتم بالسباب واللعنات . هذه هي باليونت . انها مع ذلك طيبة القلب رحيمه . الم يذكر عنها افراد العائلة انها في كل عيد من اعياد الميلاد تذرف الدمع سخينا عندما يدب الخنزير الذي قضت الايام في تسمينه ؟ انها اليوم حائقة اشد الحنق على تميزر لانها لا تترد عليها . ان الصمت في نظرها يعتبر من الاهانات الكبرى ، انه علامة من علامات الاحتمار .

ولكن تميزر لم تكن قادرة على الكلام ولم يكن صمتها بارادتها .

وعندما شعرت حول جسمها بنضارة الملاءات النظيفة ظلت انها قالت كلمة الشكر والامتنان ، ولكن صوتا ما في الواقع لم يخرج من بين شفطتها . قالت لها باليونت في خشونة وهي تنصرف :
— هذه الملاءات . . لن تحرقها بعد اليوم . .

خشيت تميزر ان تكون الخادمة قد اخذت منها سجائرها فمدت يدها الى المنضدة لتحسسها . لم تكن السجائر في مكانها . كيف لها ان تحيا من غير ان تدخن ؟ كان لزاما عليها الا تكف اصابعها عن مس هذا الشيء الصغير الجاف المتهب ، وكان لزاما عليها بعد ذلك ان تشم الى مالا نهاية رائحة هذا الضباب الذي يملأ الغرفة والذي مصه فيها ثم عاد لفظله . لن تصعد اليها باليونت الا في المساء . ليس امامها الا ان تقضي فترة ما بعد الظهر كلها بلا تدخين . اغلقت عينها ، بينما اصابعها المصفرة لم تكف عن حركتها المعتادة حول السيجارة التي لا وجود لها .

في الساعة السابعة دخلت باليونت وفي يدها شمعة . ووضعت على المنضدة اوعية اللبن والقهوة وقطعة من الخبز ثم قالت :

— الست بحاجة الى شيء آخر . . ؟

توقفت في خبث ان تطالبها تميزر بسجائرها . ولكن تميزر لم تحاول وجهها عن الحائظ الذي التصق به .

لا شك ان باليونت قد اهملت احكام غلق النافذة ، اذ انفتحت بفعل هبه من هبات الريح فانسابت برودة الليل الى الغرفة وملأتها لم تجد تميزر في نفسها من القوة ما يمكنها من ان تدفع عنها الاغطية وتهب جارية حافية القدمين الى النافذة لتفلقها ، انكشمت بجسمها

وجدت الفطاء حتى عينها وظلت ساكنة تتلقى الهواء القارص على جفنيها وعلى جبهتها . كانت الأصوات الهائلة المنبثقة من اشجار الصوبر تملأ أرجلوز كلها ، ولكن على الرغم من هذا الهدين الذي يشبه هدير المحيط كان الصمت هو كما هو ، صمت أرجلوزا الرهيب . قالت تيريز لنفسها ، انها لو كانت تحب الالم حقيقة لما اندست الى هذا الحد تحت اغظيتها . حاولت ان تريح هذه الاغظية عنها قليلا ، ولكنها لم تتحمل التعرض لهذا الصقيع غير ثوان قليلة ، بعد ذلك نجحت في هذه المحاولة لمدة اطول كما لو كانت في لمبة تمارسها . وهكذا من غير ان تركز على الامر ارادتها الواعية اصبحت آلامها تسليتها وعزاءها الوحيد ومن يدري ؟ ربما صارت هذه الالام سبب بقائها في هذا الجود .

- ١٢ -

- خطاب من سيدي .
لم تمد تيريز يدها لتناول الخطاب الذي تقدمه لها باليونت فعادت الخادمة تقول في اصرار ان سيدها يخطرها دائما بقدمه وانها تريد ان تتأكد لتبدأ في اعداد كل شيء :
- لو سمحت لي سيدتي بان افرا ...

قالت تيريز :

- اقرئي ... اقرئي ...

ثم تحولت بوجهها الى الحائط كما كانت تفعل دائما في حضرة الخادمة . ولكن العبارات التي كانت تلفظها باليونت بصعوبة اخرجتها فجأة من سباتها :

- سرنى ان اعلم من التقارير التي يرسلها لي باليون ان كل شيء يسير على خير وجه في أرجلوز ..

كان برنار ينبيء بانه سوف يعود بطريق البر ولكنه نظرا لانه قد يتوقف في مدن عديدة فهو لا يحدد بالضبط تاريخ وصوله .

- .. ان يكون ذلك بعد يوم ٢٠ من ديسمبر بحال . لا تعجبوا اذا ماهطت عليكم فجأة ومعى آن وابن ديجلهم . لقد اعلنا خطوبتهما في يوليو ولكن الامر لم يصبح رسميا بعد . ان ابن ديجلهم يتمسك بضرورة رؤيتك قبل ذلك ، وهو يؤكد ان ذلك من

باب الياقة لبس الا . اما انا فاعتقادي هو انه يريد ان يكون لنفسه وايا حول ما أنت به ادري . لك من الذكاء ما يكفي للخروج بكرامتك سليمة من هذا الاختبار العسير . تذكرى انك مريضة وان روحك العنوية منهارة . انى على كل حال اعتمد عليك في ذلك ، وساعرف كيف اقدر ما تبذلينه من جهد لعدم الاضرار بهناء آن ولعدم افساد هذا المشروع الذى يحقق مصلحة العائلة من كافة الوجوه . كذلك لن اتردد عند اللزوم في معاقبتك عقابا صارما عن كل محاولة تخريبية تصدر منك . على انى على يقين من انه لا يوجد ما يخشى منه من هذه الناحية .

كان اليوم جميلا صافيا باردا . نهضت تيريز مستسلمة لاوامر باليونت واستندت الى ذراعها لتسير بضع خطوات فى الحديقة ، ولكنها لم تستطع الانتهاء من اكل صدر الدجاجة الذى قدمته لها الا بصعوبة كبيرة . عشرة ايام باقية قبل ان يحل يوم ٢٠ من ديسمبر . افكرت باليونت لو ان سيدتها قبلت ان تحرك جسمها قليلا لكان في ذلك ما يكفي لتسترد قوتها عند حلول التاريخ المنتظر . قالت الخامة اليالون زوجها :

- لا يمكن القول انها تعاند في ذلك او تصدر عن نية سيئة ، انها تحاول الى اقصى ما يمكنها . ان سيدي برنار خبير بوسائل تدريب الكلاب العتيذة وتأديبها . انت تعرف طبعها كيف تتحول هذه الكلاب عندما يضع في عنقها السلاسل والاعلال . لم يتطلب منه امر زوجته هذه وقتا طويلا ليحولها الى ما يشبه الكلبة الهادئة المطيعة . ولكنه يفعل خيرا الا يفترب بهذا المظهر الخداع ..

ذلك ان تيريز شرعت فعلا تبذل جهودها للتخلص من الالام ومن الففوات ومن الفناء . كانت تكلف نفسها مشقة السير والاكل وخصوصا مشقة استعادة ذهنها وتفكيرها والنظر بعينى راسها الى حقائق الاشياء والاشخاص . انها تعود الى الارض التى اشعلت هى نفسها النيران فيها ، تعود لتطأ باقدامها رمادها ولتسير بين صنوبراتها المحترقة السوداء . سوف تحاول ان تتكلم وان تبسّم في وسط هذه العائلة .. عائلتها .

- ١٠٩ -

- ١٠٨ -

١٨ من ديسمبر حوالى الساعة الثالثة - السماء ملبدة بالغيوم
من غير ان يتساقط منها مطر . تيريز جالسة امام المدفأة المشتعلة
في غرفتها وقد احنّت راسها تسندها الى متكأ المقعد واغمضت
عينيهما . استيقظت على صوت (كركرة) محرك السيارة . وعرفت
صوت برنار في ردهة المنزل . سمعت ايضا صوت مدام دى لاتراف .
وحيثما اقبلت باليونت اللاهثة تزيع الباب من غير ان تدق عليه ،
كانت تيريز واقفة على قدميها امام المرآة . كانت تضع الطلاء الاصم
على شفتيها وعلى خديها وهي تقول :

- يجب على الابو مخيفة في نظر هذا الشاب ..
اخطا برنار بعدم مبادرته الى الصعود فورا الى غرفة زوجته .
قال ابن ديجليهم لنفسه وكان قد وعد والديه بانه لن يحتفظ بعينيه
في جيبه :
- ان اقل ما يقال عن ذلك انه عدم اكرام وفي ذلك ما فيه مما
يستحق التفكير ..

اتعد قليلا عن آن ورفع حافة معطفه المصنوعة من القرو وهو
يقول :
- لا جدوى من محاولة تدفئة حجرات تلك البيوت الريفية
ثم سال برنار :

- اليس لديكم كهف في اسفل البيت ؟ اذن ستكون ارضياتكم
دائما عرضة للتعفن والتناكل مالم تضعوا تحتها فرشاة من الاسمنت .
كانت آن دى لاتراف تردى معطفا من القرو وقيمة من الصوف
لا اشرطة فيها ولا حلية . وكانت مدام دى لاتراف تقول عن هذه
القيمة انها من غير اى شيء يزينها تتكلف اكثر من قبعاتنا في العهد
الماضى ، مع كل ماكان يعلوها من ريش واعواد ، على ان هذا الصوف
في حد ذاته جميل للغاية ، لقد اشتريناه من لياك ، وصممت القيمة
على احدث موديلات ريبو . جلست مدام دى لاتراف تفرض حذاءها
للنار ، وقد اتجهت بوجهها القاسى للشاحب ناحية الباب . لقد
وعدت برنار بان تكون على مستوى الاحداث والظروف . من ذلك
انها اتذرته قائلة :

- لاتعليب منى ان اقبلها فهذا امر لا يليق بك ان تكلف به امك ،

يكفينى .. يكفينى قسوة ان المس يدها . هل تعلم ؟ يا الاهى !
ما افظح الفعل التي اقترفتها . على ان ذلك ليس هو كل مايفترنى
منها .. فقد عرف ان هناك اناسا يستطيعون الاقدام على القتل ..
ولكنه مكرها وخبيثها .. هذا شيء مخيف لا يطاق . هل تذكر
قولها لي :

- يا امى ، خذى هذا المتعد ستكونين فيه اكثر راحة ..
بل هل تذكر عندما كانت لاتخشى ان توجه اليك ضربتها ، ومع
ذلك تقول :

- .. هذا المسكين العزيز يخشى الموت .. لو اجتمع حوله
الاطباء للتشاور لمات لساعته رعبا ..
الله وكيلي ، اننى لم اكن اشك في شيء في ذلك الوقت ، ولكن
كلمة « هذا المسكين العزيز » بالطريقة التي نطقتها بها قد اثارت
لدى دهشة ..

لم يكن يهم مدام دى لاتراف في تلك اللحظة وهي جالسة في
صالون ارجلوز غير الحرج الذي يشعر به الموجودون جميعا ،
فاخذت تراقب نظرات ابن ديجليهم الفاحصة المدققة ، كانها امين
الصقر ، برزها على برنار . قالت :
- يا برنار ، يجب عليك ان تذهب لترى ما الذى تصنعه تيريز
.. ربما تكون مريضة او لعلها تشكو من شيء ..

كانت آن ، وقد انصرفت عن كل شيء وكانها لم تعد تهتم لما
قد يحصل ، اول من تعرف على الخطوات المألوفة لها من قبل .
فقالت :

- انى اسمع خطواتها ، هي هابطة على السلم .

وضع برنار يده على قلبه الذى شعر فيه بالخفقان والدق
العنيف . ياله من غيبى ! لماذا لم يسبق هو الى الحضور منذ الامس
اذن لاستطاع ان يصفى الامر مع تيريز . ما الذى سوف تقوله ؟
ان لها لمن القدرة على افساد كل شيء من غير ان توقع نفسها تحت
ظائلة اى عتب . واذا كانت خطواتها على السلم بطيئة ، كان الجميع
وفوقا متجهين بنظرهم الى الباب الذى فتحته تيريز في نهاية الامر .

سوف يتذكر برنار بعد ذلك بسنوات عديدة ، أنه عند اقتراب هذا الجسم الناحل المحطم وهذا الوجه الصغير الشاحب المظلي بالمساحيق فكر في اول الامر في محكمة الجنايات . ولكن تفكيره هذا لم يكن سببه الجريمة التي اقترفتها تيريز ، وانما الخاطر السريع الذي مر بذهنه واعاد الي ذاكرته تلك الصورة الملوثة المقتطعة من بجريدة اليبتي بارزيان والتي تزين مع غيرها من الصور الكثيرة مميلاتها الحوانط الخشبية لبيت الخلاء المقام في حديقة ارجلوز . طالما توقفت عيناه وهو صبي ، بينما كان الذباب يطن والحشرات تثر في الخارج من حرارة القبط على تلك الصورة التي يختلط فيها اللون الاحمر باللون الاخضر والتي تمثل « سجينته بوتيتيه » .

هذه الصورة عادت الي مخيلته في تلك اللحظة وهو ينظر الي تيريز وقد جف منها الدم وزال منها اللحم . شعر انه كان مجنوناً بحقا حينما قرر الا يبعد عنه باى ثمن هذه المرأة الخطيرة كما يلتقي في الماء بالقبيلة التي يخشى من انفجارها ما بين ثانية واخرى . ان تيريز سواء اسلم هوبذلك ام لم يسلم ستظل تثير ذكري الفاجعة ، بل وما هو اسوأ من الفاجعة ، ستظل تثير القيل والقال في كل مكان ، فهي لا بد ان تكون اما مجرمة آثمة واما ضحية مظلومة .. بدت ملامح الدهشة على وجوه الجميع وارتسمت فيها علامات الشفقة والاسى التي لاتظاهر فيها ولا خبث حتى ان ابن ديجلهم لم يعد يدرى اى حكم يصدره وشاع التردد في افكاره . قالت تيريز :

— الامر في غاية البساطة . لقد حال سوء الطقس بيني وبين الخروج من المنزل وبذلك فقدت شهية الطعام . لم يكن يدخل جوفى شئ من الطعام تقريبا . على كل حال الرفع خير من السمنة .. ولكن لتتكلم عنك انت يا آن .. ابنى سعيدة لك ..

تناولت يدى آن الواقعة امامها بين يديها جالسة واخذت تتفرس في وجهها . عرفت آن في ذلك الوجه الذى كساه الشحوب والاعياء تلك العينين اللتين طالما حدقتا فيها من قبل في اصرار مشير . تذكرت انها كثيرا ما قالت لها وهى تترن اليها طويلا بهاتين العينين :

— هل لك ان تكفى عن النظر الى هكذا ؟ .

— انى مسرورة لهنالك يا صغيرتى آن .

وسمت على شفيتها ابتسامة قصيرة تحيي بها « سعادة آن » وخطيبها ابن ديجلهم براسه الاصع الكبير وشواربه المنتفشة كشوارب رجل الشرطة وكثفية الساقطين وسترته وساقبيه القصيرتين المثلثتين تحت سراويله المخططة بالرمادى والاسود . انه على كل حال رجل كسائر الرجال .. زوج كسائر الازواج . ثم عادت تركز عينها على آن وقالت :

— اخلمى قبعتك ... آه ... هكذا ... لقد عرفتك الآن يا عزيزتى ..

هنا رات آن عن قرب ذلك الفم الساخر وتلك العينين الجامدتين دائما اللتين لم تجر منهما الدموع ابدا . ولكنها لم تكن تدرى مايجول في خاطر تيريز . قال ابن ديجلهم ان الشتاء في الريف ليس كثير المضايقة بالنسبة الى المرأة التي تحب بيتها . فهناك دائما الكثير من الاعمال المنزلية التي تقضى فيها وقتها .

قالت آن :

— هلا سالتنى عن اخبار مارى ؟

— صحيح ... كلمينى عن مارى ...

عادت الشكوك وعاد الحذر الى قلب آن . انها منذ شهرين تكرر القول بنفس اللفظة التي تتكلم بها امها :

— انى قد اغتفر لها كل جرم لانها ، مهما كان الامر ، مريضة لانحكم تصرفاتها . ولكن تفاضياها عن مارى ونسيانها لها ! .. هذا عيب لا اطيعه . ام لانهم يشئون طفلها .. ؟ قد يمكن اختلاق كافة المعاذير والحجج ، ولكن امرا كهذا هو في نظرى الدناءة نفسها . قرأت تيريز مايجول بخاطر الشابة فقالت لنفسها :

— انها تحتقرنى لانى لم ابدا بالكلام معها عن مارى . ولكن كيف لى ان يستريح لها حالى ؟ انها لم تفهم ابدا انى مشغولة بنفسى وان اكيانى كله مملوء بى . اما آن فهى لاتتمنى الا ان تنجب اطفالا لتفنى فيهم ولهم ، كما فعلت امها من قبل وكما تفعل جميع نساء العائلة الآن . انا في حاجة دائما لان التقى بذاتى . انى اجهد جسمى وعلقى في التعرف على نفسى والحقاق بها . سوف تنسى آن مراقبتها

التي قضتها في احضانى وستسنى قرام جان ازيفيدو عندما تسمع
الصرخة الاولى للوليد الذي سيحملها اياه هذا القزم من قبل
ان يخلع سترته . ان نساء العائلة يسمين الى فقدان حياتهن الفردية
كلها . انه لشيء جميل حقا هذا التفانى الكامل في خدمة الجنس
وصيانتته . انى أقدر ، مافى هذه التضحية ، ما فى هذا الفناء من
جمال ... اما انا ... اما انا

حاولت الا تصفى الى مايقولون وان تفكر في آن . لايد انها
بدات تتكلم الآن .

— قد يطربنى صوتها بضع ثوان ... ربما ... ولكنها بعدئذ
ذلك مباشرة ستشير في الملل ويفرغ صبرى للعودة الى الوحدة مع
نفسى ...

سالت آن :

— اظنها تتكلم جيدا الآن ، ماري ؟

— انها تعيد كل مايقال لها . كم هى مضحكة في ذلك ! بكفى ان
تسمع صوت احد الدبكة او نقر احدى السيارات لترفع اصبعها
الدقيق وتقول في لغة الأطفال الحلوة

— هل تسمع الموسيقى ؟

— انها ظريفة جدا ! انها رائعة ..

— قالت تيريز في نفسها :

— يجب ان اصفى الى مايقولون . ان راسى فارغ . ماذا يقول
ابن ديجلهم ؟

— بذلت جهدا كبيرا واسترقت السمع :

— في املاكى الكائنة ببلدة باليزاك لايعمل جامعوعصارة الاشجان
في نشاط كنشاط زملائهم هنا . انهم يحصلون على اربع جمعات
بينما فلاحو ارجلوز يحصلون على سبع او ثمان .

— هل يحق لهم وثمان العصاراة على ما هو عليه ان يكونوا على
هذا التكاثر والتراخى ؟

— هل تعلم ان من جامعى العصاراة في الوقت الحاضر من
يحصل على مائة فرنك اجرا في اليوم الواحد ؟ ..
اظن اننا نتعب مدام ديكويرو ..

كانت تيريز تستند براسها الى حافة المقعد . نهض الجميع
وقوفا . اعلن برنار انه لايعود الى سانت كلير فقبل ديجلهم ان
يرجع بالسيارة التى سوف يعيدها السائق في اليوم التالى الى
ارجلوز وبها حقائب برنار . حاولت تيريز ان تنهض في جهد فتمتمتها
حمايتها من ذلك .

اغلقت عينيتها وسمعت برنار يخاطب مدام دى لاتراف فيقول :
— ان باليون هذا وزوجته .. ! بالهما .. ساربهما من اين
تؤكل الكفت .. سيשמعان ببطشى وقضى ..
وترد عليه امه قائلة :

— حذار ! لاتفال كثيرا . يجب الا يذهبيا ، فهما يعرفان من
الاسرار الكثير ثم فيما يتعلق بالاملاك .. ليس غير باليون من يعرف
الحدود كلها حق المعرفة ..

ردت مدام دى لاتراف على ملاحظة ابدائها برنار ولم تسمعها
تيريز قالت :

— على كل حال كن حذرا — لاتامن لها كثيرا — راقب حركاتها
وسكناتها . لاتتركها تدخل بمفردها الى المطبخ ولا الى حجرة
الطعام ... لا ... انها ليست مغمى عليها . انها نائمة او لاملها
مظاهرة بالنوم

فتحت تيريز عينها . ها هو برنار واقف امامها وقد مد يده
بكوب :

— ابلى هذا . انه نبيذ من اسبانيا له قدرة كبيرة على التنبيه
والإفاقة .

ولما كان من عادته ان ينفذ كل مااعتزم ان يعمله فقد دخل الى
المطبخ وانفجر غاضبا . سمعت تيريز احتجاجات باليونت الصارخة
يلفها الدارجة وقالت في نفسها :

— لقد خاف برنار من شيء .. هذا ظاهر ممن خاف ؟ ..
عاد برنار اليها وقال لها :

— اعتقد ان شهيتك للطعام ستزداد في حجرة الطعام عنها في
مقرنك .. لقد اعطيت التعليمات لكى تعد المائدة كما كان الحال
في الماضى ..

وجدت تيريز في برنار الشخص الذي عرفته في أيام الدراسة ؛ ذلك الحليف الذي يريد أن يخرجها من المازق ايا كان الثمن . ها هو يريد لها ان تشفى مهما كلف ذلك . طبعاً لقد انتابه الخوف في فترة ما . نظرت اليه تيريز وهو جالس امامها يقلب جمرات المدفأة ، ولكنها لا ترى الصورة التي تراها عيناه الكبيرتان مرتسمة وسط اللهب . انها تلك الصورة المألوفة بالاحمر والاخضر والمقطعة من جريدة البيتي بارزيان : صورة سجينه بواتيه .

مهما امطرت السماء في ارجلوز لا تحتجز ارضها الرملية شيئاً من برك الماء . ويكفي في قلب الشتاء ان تشرق الشمس لمدة ساعة واحدة لكي يستطيع المرء ان يسير بحذاءه العادي على الطرقات الطرية الجافة المكسوة بالصقيع من غير ان يخشى البلب . كان برنار يمارس الصيد طوال اليوم مع محافظته على الحضور في اوقات الطعام وكان يستفهم من تيريز عن صحتها وعن حالها ، ويبدل لها من العناية مالم يبذله لها من قبل . زالت الكلفة او كادت ، وزال الحرج من علاقتهما . كان يجبرها على ان تزن نفسها مرة كل ثلاثة ايام وعلى الا تدخن الا سيجارتين فقط بعد كل وجبة . اقبلت تيريز بناء على نصيحة برنار على الاكثار من المشي فقد قال لها .

– ان الحركة والتمرين هما خير الوسائل لفتح الشهية .
لم تعد تخشى شيئاً في ارجلوز . اصبح يبدو لها ان اشجان الصنوبر تتفرق من حولها وتفتح لها صفوفها وتشير اليها ، ان انطلقى واذهبى الى حيث تشائين . في احدي الامسيات قال لها برنار :

– اني اطلب منك ان تنتظري الى ان يتم زواج آن اذ يجب ان يرانا اهل القرية جميعاً مرة اخرى معا . بعد ذلك ستكونين حرة . في الليلة التي تلت هذا الحديث لم تستطع النوم فقد ظلت عينها مفتوحتين يشد عليهما سرور يخالطه القلق . . سمعت في الفجر اصوات الديكة التي لاعداد لها والتي يبدو انها لا تتجاوب في صياحها : انها تصيح معا فتملأ الارض والسماء ضجيجاً متواصلاً ها هو برنار سيتركها طليقة في الدنيا كما سبق له من قبل ان اطلق في البرية انثى الخنزير الوحشي التي لم يستطع ترويضها . بعد

ان تزوج آن اخيراً سيقول الناس ماشاء لهم القول ما دام برنار سيأخذها من يدها الى وسط باريس ويلقيها في الخضم ثم يفر هارباً . هذا ما اتفقوا عليه . لاطلاق ولا انفصال رسمي . سيخترعان شيئاً مناسباً لاسكات الناس وقطع السننهم ، الصحة مثلاً ، فهي لا تشعر بالتحسن في حالها الا في السفر . سيدفع لها بانتظام عائداً المصارة الناتجة من اشجارها عند حلول عيد القديسين من كل سنة .

لم يكن برنار يناقش تيريز في شيء من مشروعاته ، افهمها ان في استطاعتها ان تذهب الى الحجيم اذا شاءت . قال لامه يوماً :
– لن اهدا الا بعد ان ترحل عن هذا المكان ولا يد ان تعود الى استعمال الاسم الذي كان لها قبل الزواج . . هذا لا يمنع ، على كل حال ، اذا حاولت ان تركب رأسها ، من ان نتقابل مرة اخرى . ولكنه مع ذلك كان يقول مؤكداً :

– ان تيريز لا تثور الا وهي بين القضبان فاذا ماردت اليها حريتها قد لا تكون هناك من هي اعقل منها ولا ازرن . هذه على كل حال محاولة يجب علينا تجربتها . .

وهذا كان رأى مسيو لاروك ايضا . ففي اعتقاده ان من الخير عموماً ان تختفى تيريز اذ سيساعد رحيلها على سرعة نسيانها وسيفقد الناس عادة الحديث عنها مع الزمن . من المهم للجحيم ان يخيم الصمت على هذا الموضوع كله – لقد تمكنت هذه الفكرة من عقول النجوم حتى اصبح من العسير اقتلاعها :
يجب ان تخرج تيريز من عقالها وان يطلق سراخاها . ما اشد تحرقهم لتحقيق هذه الفكرة واخراجها الى حيز التنفيذ ! . . .

كانت تيريز تعشق هذا التجريد الذي يفرضه الشتاء المنسحب على الارض التي اكتمل عوبها ، على الرغم من الكسوة الجافة من الاوراق الميتة المتشعبة باشجار البلوط . اكتشفت في ذلك الوقت ان الصمت في ارجلوز لا وجود له . ففي اكثر الاوقات هدوءاً تسمع القابة تئن وتشكو كمن يبكي سوء حاله وترها تترجج وتتمايل وتهجم وقد تحول الليل فيها الى وسوسة لا نهاية لها . ستصادف في حياتها المقبلة ، تلك الحياة التي لا تستطيع ان تتصورها على

حقيقتها بعد ، اياما ترى فيها الفجر خاليا خاويا حتى لينتابها
الاسف على ساعة الصباح في ارجلوز حيث لا ضجيج غير صباح
الدركة التي لا عدد لها . ستذكر في فصول الصيف القادمة طنين
زنايب النهار واصوات حشرات الليل . ستعاشر في باريس لا هذه
الصنوبرات الممزقة وانما كائنات هربية مخيفسة . ستعيش بين
جماهير الناس بعد ان عاشت طويلا بين جماهير الاشجار .

شعر الزوجان بالدهشة العميقة لما بينهما من حرج يكاد ان لا
يذكر . قالت تيريز لنفسها ان الأشخاص يصبحون خفافا لطفا
على قلبنا متى تأكد لنا ان فراقهم قريب . كان برنار يعنى بالسؤال
عن وزن تيريز ، وكان يعنى ايضا بحديثها ، وكانت هي تنطلق في
الحديث امامه في حرية لم تمهد لها في نفسها من قبل :

— في باريس ... حينما اذهب الى باريس ...

انها ستقيم في أحد الفنادق وربما بحث فيما بعد عن مسكن *
انها ستواظب على حضور الدروس والمحاضرات وحفلات الموسيقى
« ستعيد تعلمها من الأساس ... » ولم يكن برنار يفكر في فرض
أية رقابة عليها . كان يكتفي بالاستماع اليها غير عابئ بما تقول
مستمرا في تناول طعامه وافراغ كاسه . كان الدكتور بيدمي الذي
يتقابل معهما احيانا على طريق ارجلوز يقول لزوجته :

— ما يحيرني من امرهما انهما لا يبدوان كمن يمثل تمثيلية
متقنة .

— ١٣ —

في صبيحة يوم حار من ايام شهر مارس والساعة العاشرة ،
مسيل من الادميين مناسب في الطريق يرتطم بشرفة قهوة السلام *
بحيث يجلس برنار وتيريز ، التت بما بقي من سيجارتهما ، وكما هي
عادة اهل اللاند داست عليها بقدمها تطلقها .

— هل تخشين ان تنشرى النار في الصيف ؟

قال برنار ذلك متكلفا ليوجد سببا للضحك . انه يلوم نفسه
على انه صاحب تيريز حتى باريس . لا شك انه قام بهذه المهمة في
اليوم التالي لزوج ان مباشرة بسبب كلام الراى العام ، ولكن

— ١١٨ —

السبب المهم هو الاستجابة الى طلب زوجته الشابة . لقد طالما قال
عنها ان لها قدرة عجيبة على خلق المواقف الشاقة ، وراى انها
ظالما ظلت قائمة في حياته فسيضطر كما يفعل الآن الى قبول القيام
بمثل هذا العمل الذي لا روية فيه . ما زالت هذه المرأة المجنونة
تحفظ بنعوذ ظاهرى على مثل عقله المتوازن التين . وفي لحظة
الانفصال عنها ، لم يستطع ان يمنع نفسه من الشعور بشيء من الحزن
لم يكن ليرضاه لنفسه ابدا . هذا الشعور ، انه غريب عنه اذا ما
حاول ان يحدثه فيه اى انسان ، وهو جانب تيريز اكثر غرابة بل
امر لا يمكن تصوره . ما اشد حاجته وما اقوى لهفته للتخلص من
هذا الشعور . لن تعود اليه انفاسه طليقة الا في قطار الظهر *
وستنتظره السيارة هذا المساء في لانجون . غادر المحطة مسرعا *
وانطلق على طريق فيلاندر ، وبدأت جيوش الصنوبر المتراصة *
كان يتابع النظرات الى وجه تيريز ويوجه عينيه احيانا الى شخص
ما وسط الجمهير الففيرة ، ويظل ينظر اليه الى ان يختفى وفجأة
قال تيريز :

— يا تيريز ... لقد كنت اريد ان اسالك ...

ثم اشاح بوجهه ، فما استطاع ابدا تحمل نظرات هذه المرأة .
واخيرا قال على عجل :

— اريد ان اسالك ...

— اريد ان اعرف ... هل كنت تكرهيننى ؟ .. لاني كنت فظيما
في نظرك ... ؟

سمع هو نفسه هذه الكلمات التي تلفظ بها في شيء من الدهشة
ومن الفيظ . ابتسمت تيريز ونظرت اليه نظرة عميقة قاسية : ها
هو برنار يوجه لها سوألا ، ذلك السؤال نفسه كان يتبادر في ذهنها
لاول وهلة لو انها كانت في مكانه . هذا الاعتراف الذي اجهدت عقلها
في اعداده بتؤدة في العربية اولا وهي تدرج بها على طريق نيزان ثم في
قطار سانت كلير الصفير ، تلك الليلة الطويلة التي قضتها في البحث
والاستقصاء ، عن الوصول الى سبب فعلتها ، هذا الانعواء المضنى
على نفسه . كل ذلك سينال جزاءه في هذه اللحظة الحاسمة . لقد
ادخلت الاسطراب من غير ان تدري الى قلب برنار . لقد اورثته

التمقيد ، وها هو في تلك الساعة يلقي عليها سؤاله كما لو كان
انسانا لا يرى الامور على وضوحها ، انسانا يتردد ..! أما تيريز فلم
تكن بمثل هذه البساطة ، ولم تكن بمثل هذا التسامح الكريم ..
القت على هذا الرجل الجديد عليها نظرة مجاملة ، نظرة فيها ما
يشبه عطف الام وحناها ، ثم ردت عليه في نبوة كلاسخرية :

— الست تعلم اني فعلت ما فعلت من اجل ما تملكه من اشجار
الصنوبر . نعم لقد اردت ان اصبح وحدي المالكة لاشجارك .
هن برنار كتفيه وقال :

— لست اعتقد ذلك الآن وما اعتقدته قط من قبل . لماذا فعلت
ذلك ؟ الا تستطيعين ان تذكرى لى السبب الآن ؟

نظرت الى النضاء : على هذا الرصيف وعلى حافة هذا النهر
الطامى من الطين والاجساد المتراخمة ، في اللحظة التى توشك ان
تندفع فيها الى هذا النهر وان تتردى فيه وان تفوق راضية في
خضمه ، في تلك اللحظة برقت امام عيني تيريز بارقة من الضوء ، لمع
فجر جديد : تصورت في مخيلتها العودة الى البيت الملىء بالاسران
والاحزان تقضى فيه حياة كاملة في التأمل والانصلاح وسط الصمت
الرهيب الذى يغطي ارجلوز : المفامرة الروحية الدفينة ، البحث عن
مسبيل الله ... مر امامها في تلك اللحظة رجل مراكشى ممن يبيعون
السيح والعقود الزجاجية فظن انها تبسم له واقترب منهما ..
قالت تيريز وهى ما زالت تتظاهر بالسخرية :

— كنت على وشك ان احيبك بانى لا ادري لماذا فعلت ذلك .
اما الآن فعلى عرفت السبب . تصور ..! ربما كان هذا السبب
هو رغبتى في ان ارى في عينيك شيئا من القلق ، من التطلع ، من
الاضطراب ، كل هذه الاشياء التى اكتشفتها فيك منذ هذه اللحظة
فقط .

زمجر برنار في صوت اعاد الى ذاكرتها رحلة العرس في اول
مهدهما بالزواج وقال :

— ستظل السخرية تلازمك حتى النهاية .. كوني جادة ..
لماذا فعلت ذلك ؟

كفت تيريز عن السخرية والضحك وقالت :

— ان رجلا مثلك يا برنار يعرف دائما جميع الاسباب التى
تصدر عنها افعاله ، اليس كذلك ؟

— بالتأكيد ، بغير شك ... على الاقل يبدو لى انى اعرقها ..
— اما انا فكم كنت اود الا يبقى شيء خافيا عنك . لو انك علمت
مقدار العذاب الذى فرضته على نفسى من اجل ان ارى الامور
واضحة ... ولكن الاسباب جميعها التى كان فى استطاعتى ان
اقدمها لك — هل تفهم ؟ كانت ستبدو لى كاذبة بمجرد ان احاول
الافصاح عنها ..

فقد برنار صبره وقال :

— على اى حال ، هنالك مع ذلك يوم حزمت قيسه امرك ..
وتفقدت فيه فعلتك ؟

— نعم ، يوم الحريق الكبير في مانو .

تقارب راساهما ودار الحديث بينهما همسا . في هذا المفترق
بين شوارع باريس ، تحت هذه الشمس الخفيفة ، وفي هذا النسيم
الذى تخالطه البرودة وتفوح فيه رائحة الطياق الوارد من وراء
البهار والذى يداعب الستر الصفراء والحمراء ، وجدت تيريز ، انه
لامر عجيبي ان تستعيد ذكرى ذلك اليوم الحار الشديد التيقظ
وتلك السماء المختنقة بالدخان وذلك الافق الملتهب وتلك الرائحة
النفاذة المنبعثة كرائحة المشاعل والتي كانت ترسلها اشجار الصنوبر
المحترقة ، والى جانب ذلك كله قلبها الهاجع الذى تتشكل فى داخله
ببطء الجريمة الكراء .

— اما كيف حدث ذلك فاليك الشرح .. كنا في حجرة الطعام
وهى معمطة المعتاد فى ساعة الظهر ، وكنت انت تتكلم ملتفتا برأسك
ناحية باليون وقد سهوت عن عدد القطرات التى كانت تتساقط فى
كوبك .

لم تكن تيريز تنظر الى برنار وهى تروى له ما تروى ، وانما كان
همها كله منصرفا الى تذكر جميع الظروف وعدم اهمال شيء منها
مهما دق . ولكنها سمعته بضحك فتوجهت بنظرة الى وجهه .
نعم .. انه يضحك ضحكته البلاء وهو يقول :

— لا . ما فلنك بى ؟ من تعتقدين ان اكون ..

التعقيد ، وها هو في تلك الساعة يلقى عليها سؤاله كما لو كان انسانا لا يرى الامور على وضوحها ، انسانا يتردد ..! أما تيريز فلم تكن يمثل هذه البساطة ، ولم تكن يمثل هذا التسامح الكريم .. . القت على هذا الرجل الجديد عليها نظرة مجاملة ، نظرة فيها ما يشبه عطف الأم وحنانها ، ثم ردت عليه في نبرة كلها سخرية :

— الست تعلم اني فعلت ما فعلت من اجل ما تملكه من اشجار الصنوبر . نعم لقد اردت ان اصبح وحدى المالكة لاشجارك .
هن برنار كئيبه وقال :

— لست اعتقد ذلك الآن وما اعتقدته قط من قبل . لماذا فعلت ذلك ؟ الا تستطيعين ان تذكرى لى السبب الان ؟

نظرت الى الغشاء : على هذا الرصيف وعلى حافة هذا النهر الطامى من الطين والاجساد المتراخمة ، فى اللحظة التى توشك ان تندفع فيها الى هذا النهر وان تتردى فيه وان تفوق راضية في خضمه ، فى تلك اللحظة برقت امام عينى تيريز بارقة من الضوء ، لمع فجر جديد : تصورت فى مخيلتها العودة الى البيت الملىء بالاسرار والاحزان تقضى فيه حياة كاملة فى التأمل والانصلاح وسط الصمت الرهيب الذى يغطى أرجلوز : المفامرة الروحية الدفينه ، البحث عن مسيل الله .. . مر امامها فى تلك اللحظة رجل مراكشى ممن يبيعون السبخ والمقود الزجاجية فظن انها تبتسم له واقترب منهما .. . قالت تيريز وهى ما زالت تتظاهر بالسخرية :

— كنت على وشك ان اجيبك بانى لا ادري لماذا فعلت ذلك .
اما الآن فلعلى عرفت السبب . تصور ..! ربما كان هذا السبب هو رغبتى فى ان ارى فى عينيك شيئا من القلق ، من التطلع ، من الاضطراب ، كل هذه الاشياء التى اكتشفتها فيك منذ هذه اللحظة فقط .

زمجر برنار في صوت اعاد الى ذاكرتها رحلة العرس فى اول عهدهما بالزواج وقال :

— ستظل السخرية تلازمك حتى النهاية .. . كئيبى جادة .. .
لماذا فعلت ذلك ؟

كفت تيريز عن السخرية والضحك وقالت :

— ان رجلا مثلك يا برنار يعرف دائما جميع الاسباب التى تصدر عنها افعاله ، اليس كذلك ؟

— بالتأكيد ؟ بغير شك .. . على الاقل يبدو لى انى اعرفها .. .
— اما انا فكم كنت اود الا يبقى شىء خافيا عنك . لو انك علمت مقدار العذاب الذى فرضته على نفسى من اجل ان ارى الامور واضحة .. . ولكن الاسباب جميعها التى كان فى استطاعتى ان اقدمها لك — هل تفهم ؟ كانت ستبدو لى كاذبة بمجرد ان احاول الافصاح عنها .. .

فقد برنار صبره وقال :

— على أى حال ، هناك مع ذلك يوم حزمت قيه امرك .. . وتفذت فيه فعلتك ؟

— نعم ، يوم الحريق الكبير فى مانو .

تقارب راسها ودار الحديث بينهما همسا . فى هذا المفترق بين شوارع باريس ، تحت هذه الشمس الخفيفة ، وفى هذا التسيم الذى تخالطه البرودة وتفوح فيه رائحة الطيباق الوارد من وراء البحار والذى يداعب الستر الصفراء والحمراء ، وجدت تيريز ، انه لامر عجيب ان تستعيد ذكرى ذلك اليوم الحار الشديد التيقظ وتلك السماء المختنقة بالدخان وذلك الافق الملتهب وتلك الرائحة النفاذة المنبعثة كرائحة المشاعل والتى كانت ترسلها اشجار الصنوبر المحترقة ، والى جانب ذلك كله قلبها الهاجع الذى تتشكل فى داخله ببطء الجريمة النكراء .

— اما كيف حدث ذلك فاليك الشرح .. . كنا فى حجرة الطعام وهى معتمة كالاعتاد فى ساعة الظهر ، وكنت انت تتكلم ملتفتا برأسك ناحية باليون وقد سهوت عن عدد القطرات التى كانت تتساقط فى كوبك .

لم تكن تيريز تنظر الى برنار وهى تروى له ما تروى ، وانما كان ههما كله منصرفا الى تذكر جميع الظروف وعدم اهمال شىء منها ههما دق . ولكنها سمعته يضحك فتوجهت بنظرة الى وجهه :
نعم .. . انه يضحك ضحكته البلهاء وهو يقول :

— لا . ما ظنك بى ؟ من تعتقدين ان اكون .. .

انه لا يصدقها . وهل يمكن في الواقع أن يصدق كلامها هذا
أحد ؟ عاد يزمر ، فعرفت فيه بزوار المتأكد من نفسه والذي لا
يسمح لأحد بأن يدخل الفلطة عليه . . لقد استعاد طبعه وثقته
بنفسه ، فשמعت تيريز ثانية بالصياح . قال لها باستهزاء :

— إذن . . لقد جاءتك الفكرة هكذا ، دفعة واحدة ، بإيحاء من
الروح القدس ؟

شعر بزوار باحتقار شديد لنفسه ، إذ واجه تيريز بهذا الأسئلة .
انه بذلك قد اضاع كل الفائدة من السخرية التي صبها على رأس
هذه المجنونة . وها هي الآن تعود تترفع رأسها . ما الذي دفع به
الى الاستجابة لتلك الرغبة الجامحة في فهم ما حدث ؟ وهل هناك
شيء يمكن فهمه من هؤلاء المخبولين ؟ انها غلطة أفلتت منه . انه لم
يعمل الفكر جيدا . . .

— اسمع يا بزوار ان ما اذكره لك عن هذا الامر لا اقصد به الى
اقتناعك ببراعتى . كلا . . . ليس هذا بالمره .

وفي شهوة عجيبة انطلقت تيريز تكبل نفسها بالانتهام . وكانت
هي تحكى من طريقة ارتكابها فعلتها على هذا الوجه اللارادى-تبدو
كمن قضت الشهور الطويلة تركز في فؤادها وتفلسفي في قلبها
الأفكار الاجرامية الفظيعة . لم تعتمد بعد ان قامت بالخطوة الاولى
من الجريمة الى اعمال الذهن الصافي في الاصرار على الاستمرار
وتنفيذ ما انتوته حتى النهاية .

— لم اكن اشعر بالقسوة الا في اللحظات التي كانت بدى فيها
تتردد . كنت أقم على نفسى بسبب اطالة الآمك . كان يجب ان
أذهب حتى النهاية وبأقصى سرعه . لقد كنت أستجيب الى واجب
مفروض على فظيع . نعم ، ان ما عملته كان شسيبيها . بالواجب
المفروض . . .

قاطعها بزوار قائلاً :

— ماهذا اللغو والتخريف ؟ حاولي أن تقولى لى باختصار ماذا

كنت تريدين ! انى اتحدالك ان تقولى . . .

— ماذا كنت اريد ؟ لاشك انه من الايسر لى ان احدثك عما

لم اكن اريده . . لم اكن اريد ان امثل شخصيته غير شخصيتى ؟

ولا ان آتى بالحركات المفتعلة ، ولا ان اتلفظ بالصيغ المحفوظة ، ولا
ان انكر فى كل لحظة تيريز هذه التى . لا يا بزوار ، تأكد انى لا ابغى
الا ان اكون صادقة مصدقة . وانى لاعجب كيف ينبعث من كل
ما اقصه عليك الآن هذا الصدى ، صدى الكذب والتلفيق . . . !
خفى صوتك . هذا الرجل الذى امامنا يلتفت نحونا .

لم يعد بزوار يتمنى الا ان ينتهى هذا المشهد ويتخلص من هذا
الموقف . انه يعرف جيدا هذه المرأة المريضة المجنونة . لو انه
فكرها تسترسل فى هرائها هذا لراحت الى مالا نهاية تحلل وتدقق
وتصنع من الحبة قبة . كذلك كانت تيريز ، ان هذا الرجل الذى
اقترب منها لحظة قد عاد وابتعد عنها بعدا سحيقا . ولكنها مع
ذلك أصرت على الكلام ، وحاولت ان تظهر احلى ما عندها من
بسمات ، وان تستخدم فى صوتها تلك النبرات الخفيفة الفليظة
التي طالما احب سماعها بزوار . . . قالت :

— اما الآن ، يا بزوار ، فانى احس تماما ان تيريز هذه التى
تدفعها الفريزة الى اطفاء سيجارتها خوفا من اشعال الحريق فى
الاحراش . . تيريز التى كانت تهوى القيام بنفسها بعد اشجار
الصنوبر المملوكة لها وبحساب ثمن عصاراتها ، تيريز التى كانت
فى يوم من الايام فخورة بزواجها من احد آل ديكيورو حريصة على
الاحتفاظ بمركزها فى قلب عائلة من اكرم عائلات اللاند سميدة
بحصولها فى آخر الامر على الاستقرار والاسرة . . . تيريز هذه
مازالت حقيقية كالاخرى وما زالت كالاخرى حية تترق . لا ، لا ،
ليس هناك من سبب للتضحية بها من اجل تلك الاخرى . . .

— اية اخرى ؟ . . .

لم تدر تيريز بماذا تجيب . نظر بزوار فى ساعته بينما تيريز
تقول :

— يجب على مع ذلك ان احضر من وقت لآخر الى البلدة . . .
من اجل مصالحى . . . ومن اجل مازى . . .

— اية مصالح ؟ . . انا الذى ادبر جميع الاموال المشتركة
بيننا . لن نفسد ماتم الاتفاق عليه ، اليس كذلك ؟ سيكون لك

مكانك فى جميع المناسبات الرسمية ، من اجل شرف الاسرة ومن

اجل مصلحة ماري ، ان تكوني الي جانبي لكي يرانا الناس معا .
ان عائلة كبيرة كمثلنا لانتخلو ، والله الحمد ، من حفلات الزواج
ولا من الجنازات ايضا . بل اني اتوقع شيئا من هذا قريبا ، اذ
يدهشني ان يظل العم مارتان على قيد الحياة حتى الخريف القادم .
ستكون هذه فرصة لك على ما يبدو ..

جندی المرور على ظهر جواده يقترب بصفارته في شفقيه
فتفتتح ابواب خفية وينساب سيل من المشاة متعجلين يخترقون
نهر الشوارع الاسود قتل ان تظفي عليه موجات السيارات المتلاحقة .
قالت تميز في نفسها :

— كان يجدر بي ان ارحل في احدى الليالي الي ناحية براري
الجنوب ، كما فعل داجير من قبل . كان يجب على ان انطلق وسط
اشجار الصنوبر الهزيلة في تلك الاراضي الخيشية ، واسير حتى
يدركني الاعياء والفناء . فما كنت لاجد في قلبي الشجاعة على
الاحتفاظ براسي غاطسا تحت مياه احد المستنقعات كما فعل ذلك
الراعي في ارجلوز في العام الماضي لان زوجة ابنه لم تكن تعطيه
مايمسك رفته من الطعام . لا ، ولكني كنت استطيع ان اتقى
بجسمي وسط الرمال وان اغرق عيني .. حقيقة هناك القران
وهناك جيوش النمل التي لاتتمهل والتي لاترحم ..

نظرت الي ذلك البحر الخضم من الادميين يتدافع امامها
تلك الكتلة البشرية الحية التي سوف تنفجر بعد حين لتتألق
بجسدها وتدرجه بين طياتها ثم تمضي به الي المجهول . لم يصدا
هناك شيء بينهما يمكن ان يفعل او يقال .. اخرج برنار ساعته
مرة اخرى وقال :

— الحادية عشرة الا ربعا : مجرد الوقت الكافي للمرور على
الفندق ..

— لن تشعر بالبحر الشديد في اثناء سفرك .

— بل ربما احتجت لان اتدثر هذا المساء في السيارة .
وات تميز في منخلتها الطريق الذي ستدرج فيه سيارته
وشعرت بالنسيم البارد الذي سيفظي وجهه ، نسيم محمّل

بالرواح المنبعثة من المستنقعات ومن عصارات جذوع الاشجار
ومن الحشائش المحترقة ومن نبات النعناع المنتشر ومن الضباب
المعلق بالاغصان . نظرت الي برنار وابتسمت له تلك الابتسامة
التي طالما قالت عنها سيدات اللاند في الماضي :

— لا يستطيع احد ان يقول انها جميلة ولكنها السحر نفسه .
لو ان برنار قال لها في تلك اللحظة :

— اني اغفر لك .. تعالي ..

فنهضت لتوها وتبعته راضية . ولكن برنار وقد احسن للحظة
بالضيق مما اتناه من تائر وضعف ، لم يعد يشعر الآن الا ببشاعة
المواقف التي لم يتعود مثلها وبسحف الكلمات التي تختلف عن تلك
التي درج على تبادلها كل يوم . لقد كان برنار اسير عادته كما
كانت عرباته « على قدر الطريق » الذي تدرج فيه . لقد كان مثل
هذه العربات في حاجة الي الحفر والاخاديد التي كونها الزمن .
وحيثما يعود الي تلك الحفر والاخاديد ، في هذا المساء نفسه ،
في حجرة الطعام في سانت كير ، سيستعيد هدوءه ويتذوق من
جديد الراحة والسلام .

— اريد للمرة الاخرة ان اطلب منك الصفع والففران يا برنار .
ارسلت هذه الكلمات في نبرة جادة وان خلت من الامل . انه
يجهد اخير تبذله على امل ان تستعيد به الحديث . ولكنه رد
عليها محتجا :

— لنكف عن الكلام في هذا الموضوع ..

— ستحس بنفسك وحيدا . ستشعر بمكانتي الي جوارتي
على الرغم من بعدى عنك . ربما كان من الخير لك لو ان الموت
اخذني .

هز كتفيه قليلا وفي صوت به المرح المتكلف قال :

— ارجوك ، لاتسقطي بالك بأمري ..

وبعد برهة قصيرة قال :

— لقد كان في كل جبل من اجبال آل ديكويرو رجل قضى
حياته اعزبا . وكان مقضيا على ان اكون انا رجل هذا الجبل . لفتا
توفرت لي جميع الصفات اللازمة لذلك ، وهذا امر لا تنكره انت

بإلذات . ان ما يؤسنى فقط هو اننا انجبنا طفلة مما يهدد الاسم بالزوال . حقيقة لو اننا ظللنا معا لما رغبتنا في الحصول على اطفال آخرين ... اذن ... سواء اهدا ام ذلك ... فالامر كله على مايرام ... لا تتحركى ... ابقى في مكانك .
اشار الى احدى سيارات الاجرة وعاد الى تيريز يخبرها ان ماتناولاه من مشروب قد دفع ثمنه .

نظرت تيريز طويلا الى قطره شراب البورتو الباقية في قاع الكأس التي شربها برنار ، ثم عطفه سرح بنظرها بين المارين . ان منهم من يبدو وكأنه ينتظر ، ثم يروح ويحىء على غير هدى . هذه امرأة تطلقت مرتين وتبتسم لتيريز ، لعلها احدى العاملات ، او لعلها متخفية في ثياب العاملات ، هذه هي الساعات التي تلفظ فيها جميع مشاغل الخيالات كل من فيها الى عرض الطريق . لم تفكر تيريز في ترك مكانها هذا ، وقررت الا تذهب في هذا اليوم الى رؤية جان ازيفيدو . تنفست الصعداء : لقد نجت ، لم تعد تريد رؤيته . ما اسام طول الحديث والبحث المستمر عن الصيغ والعبارات ! انها تعرف الكثير عن جان ازيفيدو ، ولكن الاشخاص الذين تمنى القرب منهم لاتعرف عنهم شيئا ... لا تعرف عنهم الا انهم ان يكلفوا عناء الاحاديث الطويلة - لم تعد تيريز تخشى الوحدة والانفراد . يكفيها ان تظل هكذا بلا حركة . انها تحس ان جسدها الذي ربما اجتذب اليه هناك وهو ممد في برارى الجنوب جحافل النمل وقطعان الكلاب الضارية يجمع حوله في هذه اللحظة اخلاط مبهمة من الناس وحركة لاتهدا من البشر . احسبت بالجوع فنهضت من مقعدها . نظرت في مرايا مقهى اولد انجلند الى صورتها فرات نفسها امرأة شابة مرتدية ثياب السفر اللاصقة بجسمها مضفية عليها هنداما جميلا رائعا . تذكرت ابامها الماضية في ارجلوز وقت ان كان وجهها بادى الارهاق وقد برز فيه صدغاها الشاحبان وانفها الصغير . قالت لنفسها :

- لا تبدو على السن واضحة .

تناوت طعام الفداء في شارع رويال الذى طالما داعب احلامها في الماضى . ثم تساءلت :

- ١٢٦ -

- ما الداعى الى العودة الى الفندق مادمت لا اميل الى ذلك ؟ احسبت بسرور حار ينتشر في انحاء جسمها بعد ان شربت نصف تلك الزجاجا من النبيذ . طلبت شيئا من السجائر . تقدم اليها شاب يجلس الى المنضدة المجاورة بولاعته مشتملة فابتسمت . تذكرت في هذه اللحظة الطريق المؤدى الى فيلاندر في المساء بين اشجار الصنوبر الكثيبة ، وعجبت كيف انها من ساعة تمت ان تعود اليه تذرعه الى جانب برنار .. هل هي تهوى هذا البلد ام ذلك ؟ هل هي تحب اشجار الصنوبر ام اشجار الزينة المصطفة في شوارع باريس ؟ هل هي تعشق المحيط الصاخب ام السهول الهادئة الوديع ؟ لايهمها من كل ما هو حي يعيش غير الكائنات التي خلقت من لحم ودم .. قالت لنفسها :

- ليست المدينة باحجارها ومبانيها هي الشيء الذى احبه واهواه ، لا ولا المحاضرات والمتاحف وما تحويه المدينة من متسع وجمال ، وانما هو تلك الغابة الحية التي تضرب بين جدرانها والتي تمزقها الشهوات في قوة ووحشية لم تر لهما مثيل فراعتى الزواجع واشد الاعاصير .. ان الانات التي كنت اسمعها في الليل قادمة من اشجار الصنوبر في ارجلوز لم تكن لتمس مشاعرى الا لان شيئا آدميا كان يصل منها الى قلبي .
كانت تيريز قد شربت قليلا ودخت كثيرا . كانت تضحك لنفسها كما لو كانت سعيدة - اعادت طلاء خديها وشففتها عناية فائقة ، وبعد ان اتحدرت الى الطريق ، سارت فيه على غير هدى .

تمت

Looloo

www.dvd4arab.com